تَبَصُّرات

المَحَبَّة (١)

سِمَةُ المَلَكوتِ ولُغَتُهُ الرَسمِيَّة

أوسم وصفي

تأملات في الأصحاح الثالث عشر من رسالة
بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس

+
الكاتدرائية المرقسية بالأسكندرية
مكتبة مارمرقس الاستعارية

المحبـــة ١

أوسم وصفي

مسلسل ١٧٩١٥
التصنيف صوامع روحية و رقمه ٢ / ٢٤٨
استعارة داخلية استعارة خارجية
+

المحبـــــــة١
د. أوسم وصفي

الطبعة الاولي ٢٠١٤
رقم الإيداع:٢٠١٤/٩٦٢٣

التنفيذ الفني والطباعة
شركة سباركل لحلول الطباعة
ت: ٢٤٥١١٧٦١
www.sparkleegypt.net

فهرس المحتويات

مقدمة: المَحَبة هي التي تفعل..... ١٧

الجزء الأول: المحبة وشوائبها..... ٣١

الفصل الأول: هاجس قيمة النفس..... ٣٣

الفصل الثاني: معضلة الصبر..... ٤٩

الفصل الثالث: البحث عن الحقيقة..... ٦٥

الجزء الثاني: المحبة وبدائلها..... ٧٩

الفصل الرابع: العِلم والمعرفة..... ٨١

الفصل الخامس: القوة والمظاهر الفائقة..... ٨٧

الفصل السادس: المحبة والدين والسيطرة..... ٩٥

الجزء الثالث: النُموّ في المحبة..... ١٠٧

الفصل السابع: لَمّا كُنتُ طفلاً..... ١٠٩

الفصل الثامن: تدريبات المحبة ١١٥

خاتمة: أعظمها المحبة..... ١٢٣

إهداء

إلى الحبيب الوالد

د. ق. منيس عبد النور

بعد أن كتبت هذا الكتاب والذي فيه شَبَّهت المحبة بشجرة مثمرة، تَذَكَّرت قصيدة كتبتها منذ أكثر من عشر سنين في تكريم «أبونا» منيس بمناسبة مرور خمسون سنة على بداية خدمته. ها هنا أضع هذه القصيدة في مُقدمة هذا الكتاب مهدياً إياها لمن وَصفتُهُ «بالنخلة القريبة»

نَخْلةٌ قريبة

.١

نخلةً في مصرَ غرستَ يارب الفلقْ

نخــــلةٌ تعانقُ التراب إكليلها العــرقْ

في طينِ فتروسَ[١] المُعـَــرَّقِ بالذهب

يلقونها بالحجـــارة تُلقي بالــرطَبْ

.٢

لــم تُرِدْ أن تــكونَ نخــلةً عاليـــة

تبحث عن مكانــاً بين السحـــابْ

تنــــــأى عن الأيدي القصـــيرة

وأقـــــــدامِ الواقفينَ في التــرابْ

---

١ اسم جنوب مصر في العهد القديم

بل نخلةٌ تحنيها الثمارُ..صارت قريبةْ

وإليها بالنزولِ.. أَرغمت كِبرَ السحابْ

.٣

بـرجُ مراقبـةِ الحصـادِ

وبيـاضِ أرضٍ داكـنةْ

في كـلِ أرجـاء البـلادِ

كـلمةُ حـقٍ معلنـةْ

تهـدي القلـوبَ الحائرةْ

تَشفـي العقـولَ الواهنةْ

يسـكنُ قلـبَ القـاهرةْ

وهـي بقلبـهِ سـاكنةْ

.٤

من نزلة حـرزٍ لآفاقِ الكرة

عِـرقاً فـريداً من ذهبْ

من وسـطِ أوراق الذرة

من بين أعـــواد القصـــبْ

واعـــــظُ الفلاحـــــينَ

للعالـــــمينَ قـــــد ذهـبْ

.٥

يحـملُ السحابُ صوتَهُ الأثيرْ

يطـــوف أرجاءَ القلوبِ الشقيةْ

صـــوتٌ لـدفءِ القلوبِ مثير

كنبضـــاتِ أرضٍ طـــريةْ

أرضٌ بالغيـــوثِ تحـــللتْ

يـــرويها حـــــــبُ الإله

وفيـــها التجـــاربُ أودعتْ

رؤيـــــةً ثاقبـــةً للحيـــاةْ

.٦

يتمســـــــــكون بالآراءِ

وبالعقـــائدِ والفِـــــكَرْ

ينحـــازُ دومـــاً للبنـــاءِ

وللحيـــــاةِ وللثَّـــــمَرْ

ويقـــولُ فعلاً لا شعـــارْ

إنْ في المسيحِ تكونُ الثمـارْ

فإننـــي قطـــعاً أســـرْ

.٧

يخـــوضُ عبـابَ بحرٍ هائجٍ

علـــى جانبيهِ سـفنٌ كسيرة

بحـــكمةٍ من فوقِ نـازلةٌ

تـــراوغُ المـــحنَ العسيرةْ

يحبكَ الأعداءُ، فأنتَ تـحبهمْ

وسيـــفُ المحـــبة

قد فاقَ أســـلحةً كثيرةْ

٨.

من فــوقِ منبرٍ رصـــــينٍ

يقــولُ كلمـــاتٍ قليـــلة

يقــول كل الســـامعينَ:

كَـــم كلمةٌ سهلةٌ حــميمة!

ورُبَ كلمـــةٍ تختصـــرُ

عَــرقَ سنـــواتٍ أليمـــة

٩.

مُركـــــزةٌ ، مُركـــــبةٌ

حــــادةٌ نــــاعمـــــةٌ

كســـنِ نصـــلٍ عليمـــةْ

كيـــفَ تفصــــلُ الــورمَ

عن أنسجةِ الجسمِ السليمةْ

.١٠

يــراه الـــكبيرُ كبيـــراً له

ويلــمس الطفلُ فيه الطفولة

دَنَت الـــوداعة والمـــهابة له

ففـــي شيخنا صـدقت مقولة

من يـــحني الشيوخ له الكتف

وبكـــتف الشباب ذراعاً أحاطَ

رجـــل بالتواضـــع التَـحَف

تـــلك عبقـــريةُ البســـاطة

.١١

ربـــعَ قـــرنٍ مـــن دمـــاك

أودعـــت قصـــر الدوبـــارة

وكنـــت يـــوماً هنـــاك

حيـن أشعـــل الروحُ الشرارة

وحيـــن الشـــرارة أضرمت

بين القلــــوب الفتيــة

لم تســـــد يوماً عليهــا

بـــل صِرتَ مثلاً للرعية

.١٢

والـــد التـــلاميـــذ

لـــيس ســـوى تلميذ

لم ير نفسـه يوماً معلماً

لم ير نفســه يوماً عظيماً

فلئـــن كـــان قد رأى

لـــكان السقوط أليماً

ولصـــــار هـــــو

وصار كل من فينا عقيماً

.١٣

لكني أقول اليومَ وملءُ قلبي شكراً

وحـــولي تلاميذكُ دِساماً وخُضـراً

يا نخـــلةً تزهو في الـــــمشيبِ

يا لـــــيت لا يـــأتي الـــــمغيبُ

يا نخـــلةً تثمـــرُ في المشيبِ

يا ليـــــتَ لا يـــأتي الـــــمغيبُ

قيـــلت في كليـــة اللاهـــوت الإنجيليـــة بالعباسية في حفـــل تكـــريم

ق. منيس عبدالنور

بمناسبة مرور ٥٠ سنة على انخراطه في الخدمة ... ٢٦ مايو ١٩٩٩

ثم قيلت في كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية في حفل تكريم

القس منيس عبد النور

بمناسبة مرور ٢٥ سنة على توليه رعاية كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية

١٦ مارس ٢٠٠١

تَبَصُّرات

هو عنوان هذه السلسلة من الكُتب الصغيرة التى يمثل هذا الكتاب أوَّل إصداراتها وكلمة تبصرات هى جمع كلمة « تبصّر» والتَبَصُّر insight يعنى الرؤية العميقة المتأمِّلة المقصودة فى مُقابل الرؤية العَفَويَّة غير المقصودة . مثل هذه الرؤية تتطلب بذل الجهد .

فى هذه السلسلة سأحاول تقديم موضوعات، متعددة كلها تدور حول محاولات الرؤية الأعمق لحقائق الحياة والوجود الروحى والإنسانى - ملكوت الله وأعماق الإنسان . والهدف دائماً هو أن تنمو فى الحكمة والنعمة (أى فى القلب والعقل) وذلك عند الله والناس* (أى روحياً ونفسياً وعلاقاتيا) مع كل ما يُصاحب ذلك من متعة روحية وعقلية.

---

* انجيل لوقا ٢:٥٢

مقدمة

المحبة هي التي تفعل

بالرغم من أن «المحبة» هي الكلمة الأكثر وروداً في العهد الجديد والكلمة الأكثر تواتراً على ألسنة المسيحيين، إلا أنها الحالة الأقل وجوداً في الحياة والعلاقات حتى في إطار الكنيسة، أو ما يُمكن أن نسميه «المجتمع الروحي». فالصمت والفتور وربما الكلام السطحي، أكثر من الشَركة العميقة، وعندما نتكلم فهناك الجدل المُحتَدِم أكثر من الحوار الحميم. وعندما نعمل معاً، فإن الغيرة والتنافس كثيراً ما تفيض كنهر ثائر يغرق ما كُنّا قد زرعناه من حقول التفاهم والتعاون. صَبرُنا نافذ، وخصامُنا قريب، انفجارات الغضب لا تثير قلقنا، والقطيعة لا نعتبرها خطيئة. التَفاخُر والانتفاخ يتَستَّرُ بستار المشاركة. وعندما تصير المُقارَنات رياضة ذهنية نمارسها بلا أدنى قلق، فإن الحزن لارتفاع الآخر والفرح بسقوطه يكون رد الفعل المباشر الذي كثيراً ما نخجل منه وقليلاً ما نواجهه بجدّية وخَوف كما ينبغي أن تُواجَه الأورام السرطانية. الشك أقرب إلينا من التصديق، واليأس من الآخرين كثيراً ما يغلب إيماننا بهم ورجاءنا فيهم ـــــ كُل هذا يحدث داخل قلوبنا وفي قلب علاقاتنا ولا يكشف لنا حقيقة فقرنا في المحبة، بل نواصل كلامنا الفصيح بلا خجل عن المحبة التي هي «رِباط الكمال».

لماذا كل هذا؟ وكيف يُمكن لهذا الواقع المرير أن يتغيَّر؟ في هذا الكتاب

سوف نحاول الاقتراب من هذين السؤالين ونحن نتأمل « تشريح» المحبة ونحاول أن نفهم «طريقة تشغليها».

آجابي

المحبة التي يتكلم عنها العهد الجديد هي نوعٌ خاصٌ جِدّاً من المحبة يُمكننا أن نسميه المحبة الروحية، أو الإرادية، أو المحبة غير المشروطة. هذه المحبة ليست أبداً رد فعل، وإنما هي التصرف بشكل مقصود، للتعاطف مع الآخرين (بما فيهم الله)، وذلك لتحقيق خيرهم النهائي والمتكامل.[1] إنها حالة كُلّية،[2] وليست جهازاً نقوم بتشغيله أو توقيفه مع شخص أو شيء بعينه، بل هي تَوَجُّهٌ عام نحو الحياة يميل للتفكير والتأمل والعمل من أجل الصالح أينما كان، وهي بالتالي تنمو وتتغذى على كل ما هو حق وصالح، وعادل وجميل.[3]

الإنسان جميل المظهر والجَذّاب نجد أنفسنا نقترب إليه ونُعامله بلُطف دون أدنى مجهود. الذكي اللمّاح نحب أن نتكلم معه ونصادقه لأننا نستمتع بحلو حديثه واستبصاراته المثيرة. أيضاً أبناءنا وبناتنا وأقاربنا الذين نعتبرهم «من دَمنا» لا نبذل مجهوداً في محبتهم، بل نتمنى أن يكونوا أفضل منا في كل شيء ونُضحّي من

أما **آجابي** فهي كزهرة الصَبّار النادرة التي تحتاج لوقت طويل لتنمو، ليس كرد فعل طبيعي للأمطار وإنما بالرغم من الجفاف والأشواك.

---

1 Thomas Oord, Science of Love

٢ يُعَرَّف الشيء أنه "كُلِيٌّ" Holistic عندما تكون أجزاؤه مُتَّصلة معاً بشكل عضوي غير منفصم. ولا يُمكن فهم أياً منها بمعزل عن الباقي ودون إشارة إلى الكُل.

3 Dallas Willard, Getting Love Right, A paper presented at the American Association of Christian Counselor Conference. September 2007. Conference Theme: "No Greater Love".

أجلهم فَرِحين. الحُب الجنسي والرومانسي يحدثان تلقائياً ودون مجهود، بل ربما يكون المجهود في توقيفهما أو إبطائهما. حُبّ الصداقة والتمتُّع بصُحبة الأشخاص الممتعين لا يُشكِّلُ عبئاً علينا، خاصةً أنه لا يُطالب بالكثير من الالتزام. أيضاً الحُب الطبيعي الذي نُحب به أهلنا، وبالذات أبناءنا وبناتنا الذين وُلِدوا على أيادينا، واضح من اسمه أنه لا يحتاج منا مجهوداً أو اختيار فهو حب طبيعي وفِطري. هذه الأنواع من الحُب تشبه زنابق الحقل الجميلة التي لا يزرعها أحد بل تنتشر على وجه الحقل تلقائياً بعد عدة أيام مطيرة. أما **آجابي** فهي كزهرة الصَبّار النادرة نحتاج أن نزرعهاو تحتاج لوقت طويل لتنمو ليس كرد فعل طبيعي للأمطار، وإنما بالرغم من الجفاف والأشواك.

وهكذا فإننا إذا وضعنا أنواع الحُب المختلفة على مُتَّصل كالمُوَضَّح بالشكل، فإننا سوف نجد الحب الجنسي والرومانسي مرتبطان بالجسد والمشاعر، وربما حُب العشرة أيضاً يكون مرتبطاً بالمشاعر والعقل، وحب الصداقة يرتبط بالعقل وبعض الإرادة. أما المحبة الروحية (آجابي) فهي تسكن الإرادة. وإذا كانت الأنواع الأخرى من الحُب تلقائية تُبنى على قاعدة *الاحتياج* فآجابي تُبنى على *الاختيار*.

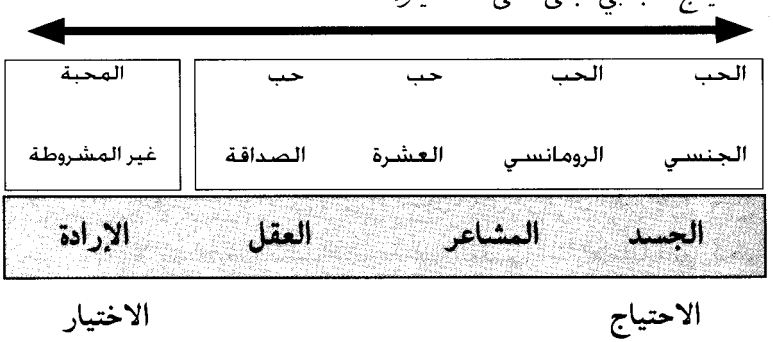

ولكوننا نحن البشر غير قادرين على الإرادة الحرة تماماً حيث أن إرادتنا نحن البشر محدودة وحريتنا غير مطلقة، فهذا الحب غير المشروط ليس مصدره الأساسي البشر مطلقاً فوجود البشر مشروطٌ بالأساس. إن آجابي هي محبة خالصة نقية صادرة من ذلك الكائن الذي هو أصل الكيان. الذي لا يحتاج أن تُبنى كينونته على شيء سواه، ولا يحتاج إلى ما هو خارجه لكي يكون. إن كانت هذه المحبة هي «من الله»، فإننا نستطيع أن نقبلها منه ونتعامل بها مثله لأننا مخلوقون على صورته، وإن كانت هذه المحبة روحية (أي إرادية) فنحن نستطيع أن نستقبلها ونقدمها كلما صِرنا أكثر روحانية، أي أكثر قدرة على ممارسة الإرادة . وممارسة الإرادة هنا هي أن *نضع أنفسنا في المكان* الذي يجعلنا نستطيع أن نستقبل هذه المحبة من الله ونستمتع بها ونُعطيها لغيرنا. صحيحٌ أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لنُحب هذا الشخص أو ذاك. لكننا نستطيع أن ننمو لنكون ذلك الشخص الذي يميل لأن يحب. الله نفسه لا يُحبّنا لأنه يقرر في كل حالة أن يحب هذا الإنسان أو ذاك. هو نفسه محبة. المحبة هي طبيعته وتَوَجُّهُه العام والأبدي تجاه كل شخص وكل شيء، ونحن نكون مثله عندما تكون المحبة هي تَوَجُّهَنا، وعندما تكون المحبة تَوَجُّهَنا، نكون أكثر فأكثر مثله.

المحبة هي التي تفعل وليس نحن

هناك فقراتٌ في العهد الجديد أدّى الفهم الخاطئ لها إلى الكثير من فشل التطبيق، بل والصراع الداخلي لدى الإنسان الذي يريد أن يطيع هذه المبادئ ويعيش بها ولا يستطيع. فكانت النتيجة عبر العصور أننا تعاملنا معها كجهاز مُعَقّد لم نستطع أن نفهم طريقة تشغيله، فاستخدمناه كتُحفة نزين بها المنزل.

وهكذا حولنا هذه الفقرات السامية إلى تحفٍ جميلة نحفظها عن ظهر قلب ونفتخر بها ونقوم بتلميعها ونضعها على أرففٍ ثقافتنا ووعينا الفرديّ والجمعي كقيمٍ نفتخر بها كثيراً وقليلاً ما نعيشها. من هذه الفقرات بالطبع «الموعظة على الجبل»[٤] التي تصوَّرنا أنها مجموعة من الشرائع والوصايا التي على المسيحيين تطبيقها حتى سَمَّاها البعض «الشريعة المسيحية» بينما هي وصفٌ جميل لإنسان الملكوت الذي يدعونا المسيح لنكونه كلما عشنا الملكوت ونَمينَا فيه. من هذه الفقرات أيضاً « أصحاح المحبة» وهو الأصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس والذي نحاول في هذا الكتاب أن نقترب منه لنتعامل معه كجهازٍ فاعلٍ وليس كمجرد تحفةٍ جميلة.

إن كانت هذه المحبة هي «من الله» ، فإننا نستطيع أن نقبلها منه ونتعامل بها مثله لأننا مخلوقون على صورته.

عندما وصف الرسول بولس في هذا الأصحاح بإسهاب وإعجاب، ما تفعله المحبة وما لا تفعله، فإننا قدً تعاملنا مع هذه الأوصاف وكأنها وصايا علينا تطبيقها. وعندما طالبنا أنفسنا، ونحن فقراء في المحبة أن نفعل هذه الأشياء ولم نستطع، حفظنا الفقرة عن ظهر قلب ووضعناها في «غرفة جلوس حياتنا» وصرنا ننظفها ونلمعها ونذكرها لبعضنا البعض من عظة لعظة ومن مؤتمر لمؤتمر. وليس ذلك فقط، بل الأسوأ من هذا أننا استخدمناها للّوم والتأنيب. فعندما نسلك السلوكيات المنافية للمحبة، وكثيراً جداً ما نفعل، نجد أنفسنا نستخرج من هذه الفقرة «السكّين» المناسبة للموقف لوخز بعضنا البعض، فنقول: «يا أخي، المحبة لا تَظُنّ السوء»، «يا أخي، المحبة لا تَحتدّ»، وهكذا نحوّل تلك الماسة الجميلة التي وضعها الرسول بولس أمامنا لكي نشتهيها

٤ أوسم وصفي. إنسان الملكوت ـ خليقة جديدة ينتظرها العالم (القاهرة، ٢٠١٣) ص. ١١- ٣٩

ونبيع كل ما نملك لكي نقتنيها، إلى أداة قطع، نجرح بها أنفسنا وبعضنا البعض.

الإنسان الذي تسكنه المحبة يفعل هذا، لأن المحبة فيه هي التي تفعل وليس هو. أمّا ما عليه هو أن يفعله، فهي أشياء أخرى، بها يُمَكِّن المحبة من قلبه، فيجد نفسه يفعل ما لم يكن يقوى أن يفعله قبل أن تسكن قلبه المحبة. فالمحبة فيه هي التي تتأنى وترفق، ولاتحسد ولاتحتد، ولا تطلب ما لنفسها، وتصدق كل شيء وتحتمل كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء، إلى آخر أوصاف المحبة. فمن هو ذاك الإنسان الذي يصدق كل شيء؟ ويحتمل كل شيء؟ ويرجو كل شيء؟ ويصبر على كل شيء؟ إنه من يُحب. يقول المثل العامي المصري: «حبيبك يبلع لك الزلط وعدوَّك يتمنى لك الغلط». فإن كان نفس الإنسان الذي «يبلع الزلط» لشخصٍ ما، «يتمنى الغلط» لشخصٍ آخر، فمن الذي «يبلع الزلط» إذاً؟ إنها المحبة. ومن الذي «يتمنى الغلط»؟ إنها العداوة.

إذا أشارت إليكم، فاتبعوها

لقد أدرك جبران هذه الحقيقة الروحية العميقة، وهي أننا لا نمتلك المحبة كأداة بل هي التي تمتلكنا كأدوات لها.[٥]

٥من الواضح تأثير هذه الفقرة من سفر نشيد الأنشاد على جبران: «لأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ. الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَاوِيَةِ. لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارٍ لَظَى الرَّبِّ. ٧مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ. وَالسُّيُولُ لاَ تَغْمُرُهَا. إِنْ أَعْطَى الإِنْسَانُ كُلَّ ثَرْوَةِ بَيْتِهِ بَدَلَ الْمَحَبَّةِ. يُحْتَقَرُ احْتِقَارًا.» (نشيد الأنشاد ٨: ٦ب، ٧).

وهذا المفهوم للمحبة هو المفهوم اللاهوتيّ السليم، رغم أن جبران لم يكن لاهوتياً. هاك ما كتبه جبران[٦]، وهو مُستَحِقٌ أن نقف عنده كثيراً متأملين:

حينئذٍ قالت له **المِطرة**، هات لنا خُطبةً في **المحبة**.

فرفع رأسه ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان، فصمتوا جميعاً خاشعين. فقال لهم بصوتٍ عظيم:

إذا أشارت لكم المحبة، فاتبعوها،

وإن كانت مسالِكُها صعبةً مُتَحَدِّرة (رُبما تفقدهم الاتزان والسيطرة).[٧]

وإذا ضَمَّتَكم بجناحيها، فأطيعوها،

وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها.

وإذا خاطبتكم المحبة، فَصَدِّقوها،

وإن عَطَّلَ صَوتُها أحلامكم (الأنانية) وبَدَّدَها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً.

٦جبران خليل جبران. *النبي* . ترجمة أنطونيوس بشير. (القاهرة: دار البستاني. ٢٠١٣) ص. ٢٢- ٢٦

٧ مابين القوسين لكاتب هذا الكتاب

× × ×

لأنه كما أن المحبة تُكَلِّلُكُم، فهي أيضاً تصلِبُكُم

وكما تعمل على نُمُوِّكم، هكذا تُعَلِّمُكم وتستأصل الفاسدَ مِنكُم[٨]

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب وتَهُزُّها في سكينة الأرض.

المحبة تَضُمُّكم إلى قلبها كأغمار الحبوب.

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عُريكم(خزيكم).[٩]

وتغربلكم لكي تُحَرِّرُكم من قشوركم (ذواتكم المزيفة).[١٠]

وتطحَنَكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج.

وتعجنكم حتى تلينوا،

ثم تُعِدُّكُم لنارها المقدسة، لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقرب على مائدة الرب المقدسة.

---

٨ في كتابه *المحبات الأربعة* يصف ك. س. لويس المحبة غير المشروطة (أجابي) أنها البستاني في حديقة المحبة. يُقَلّم فروعها ويستأصل الميت من أوراقها.

٩ المحبة المشروطة تُطالب بالشفافية والانكشاف وخلع الأقنعة (الاعتراف). لأنها تقضي على الحزي بالقبول بعد الاعتراف.

١٠ أوسم وصفي، ماهر صموئيل. *معرفة الله والنفس*. (عَمَّان: أوفير، ٢٠١٣) ص. ١٠٥- ١١٥.

كيف نتبع المحبة؟

إذا كان جبران يقول: «إذا أشارت لكم المحبة فاتبعوها»، فكيف إذاً نتبع المحبة ونُمَكِّن لها من قلوبنا لكي تُحبّ فينا وبنا؟ هذا هو محور هذا الكتاب الصغير ـــــ كيف يُمكن تنمية كياننا وضبطه على إيقاع المحبة؟ كيف يمكن التقاط «إشارة» شبكة المَحَبّة؟ الإجابة ببساطة هي: **تغيير مكاننا.** إننا عندما نتكلم في التليفون المحمول ونجد صعوبة في التقاط الشبكة، نقوم بتغيير مكاننا. فربما المكان الذي نحن فيه لا يستطيع أن يصل إلى الشبكة. تغيير المكان هنا ليس شيئاً سوى تغيير الفِكر والمنظور لكي نرى الموقف كله من منظور آخر: « منظور المحبة».

ليست آلام المحبة لام لوم النفس أو كراهية الذات، ولكنها **آلام التدريب** على ما لم نعتده.

وتغيير المكان هذا ليس أمراً سهلاً، وهو أمرٌ لا يحدث إلا بأن ننوي التدريب عليه طول العُمر، وكُل يوم، بل وكل لحظة. كما أنه تدريبٌ مؤلم، فيصفه جبران بأنه «سيف المحبة» المستور بين ريشها الجميل، وهو «ريحٌ شمالية» تُبدد ما زرعناه في حياتنا من بساتين الأنانية. المحبة كما تُكلِّلُنا «تصلبنا».[١١] وكما تَضمُّنا إلى صَدرها «تدرسنا وتغربلنا وتطحَنّا وتَعجِنّا». هذه ليست آلام لوم النفس أو كراهية الذات، ولكنها **آلام التدريب** على ما لم نعتده. إنه آلام الرياضي الممزوجة بالفرح لأن الدهون يتم حرقها والعضلات تنمو، واللياقة البدينة تزداد. الرئة تتسع ويدخل الهواء النقي إلى الصدر وتتشبع كرات الدم الحمراء بالأكسجين، ويتملئ الجسد بالحياة الحقيقية. إن كان للمحبة ألمٌ

١١إنجيل لوقا ٩: ٢٣

فهو الألم الممزوج بلذة. ولكنها هذه المرة لذة نامية غير متناهية، وليست كلذّات الجسد التي تظهر كبرقٍ وميضٍ باهرٍ مُخَلِّفة وراءها ظلاماً أكثر سواداً.

يقول جبران في ذلك:

ولكن إذا أحببت، وكان لابد من أن تكون لك رَغَباتٌ خاصة بك، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوبَ وتكون كجدولٍ مُتَدَفِّقٍ يشنف آذان الليل بأنغامه.

أن تختبر الآلام التي في العطف المتناهي.

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في قلبك:

وأن تنزف دماؤك وأنت راضٍ مغبوط.

أن تنهض عند الفجر بقلبٍ مُجَنَّح خفوق، فتؤدي واجب الشُكرِ مُلتمِساً يوم محبةٍ آخر.

كيف يكون **تغيير المكان هذا؟** يُمكِن للتبسيط أن نصف **ثلاث خطوات،** سوف يدور الجزء الأول من هذا الكتاب حول فحصهم وإعطاء الأمثلة والتدريبات عليهم:

- الدخول إلى داخل النفس وسؤالها، والتعرف عليها وعلى ما فيها من «فساد» يمنع نموّ المحبة فيها.
- الخروج خارج النفس. أي النظر من نقطة خارجية أوسع، ترى الله

وترى مزيداً من الكون والخليقة التي لسنا نحن محورها ولا تدور حولنا.

- الدخول إلى عالم الآخرين ورؤيتهم بطريقة أخرى غير التي اعتدنا عليها. نرى جمالهم وعيوبهم، قوتهم وضعفهم، فرحهم ومعاناتهم، ونرى صراع المحبة فيهم سعياً إليها أو هروباً منها.

في الجزء الأول من هذا الكتاب، سوف نتناول **المحبة وشوائبها**، ونحاول أن نعرف ما الذي فينا كُلّنا يمنع المحبة من تأصيل جذورها فينا. ثم في الجزء الثاني، سوف نتناول **المحبة وأشباهها**، ونحاول أن نكتشف ما الذي رضينا به بديلاً عن المحبة ففقدنا جوعنا إليها، وملأنا عقولنا بالعلم والكلام والدين، بدلاً من أن نترك قلوبنا لتسكنه المحبة فتعطي المعنى الحقيقي للكلام والعلم والعمل الصالح.

وفي الجزء الثالث نُلقي الضوء على الجزء الأخير من الأصحاح موضوع تأملنا، وهو **النموّ في المحبة**، نُموّاً أبدياً لا تَحُدّه نهايات، ولا الموت نفسه. فإن كان المنطق هو عقل الله الذي لا يُخطئ أبداً، فالمحبة هي قلب الله الذي لا يسقُط أبداً.

المحبة تصبر.

المحبة تشفق.

المحبة لا تحسد.

المحبة لا تتباهى.

المحبة لا تنتفخ بالكبرياء.

المحبة لا تتصرف دون لياقة.

المحبة لا تسعى إلى تحقيق غاياتها الشخصية.

المحبة ليست سريعة الاهتياج.

ولا تحفظ سجلاً للإساءات.

الأصحاح الثالث عشر من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ٤ ، ٥

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الأول

المحبة وشوائبها

المحبة شجرة تحاول أن تغرس جذورها وتَمُد قضبانها وسيقانها في تربة مليئة ببذور الحشائش والشوائب. لذلك فإن كل من يريد أن يزرع شجرة المحبة في قلبه، يجب أن يعرف هذه البذور، وشكل نباتاتها، وكيفية التَخلُّص منها لئلا تطلع هذه الأشواك وتخنق نبتة المحبة فلا تصير شجرة وارفة مثمرة. لا تأتي شوائب المحبة ظاهرة مثل الكراهية أو الأنانية أو الشرّ. فهذه الشوائب مفضوحة، وخاصة بين المؤمنين والأخلاقيين الطالبين الحق والخير والجمال والباحثين عن المحبة. تكمن الصعوبة في أن هذه الحشائش تَتَنَكَّرُ دائماً في شكل نباتات مفيدة مثل نبات «محبة النفس» بينما هي نباتٌ آخر ضار اسمه: «الانحصار في النفس»، أو تتخذ شكل زهور «الحماس والرغبة في التغيير»، بينما هي زهور أخرى سامة اسمها: «عدم الصبر»، أو تتخذ شكل نباتٍ طِبّي اسمه «البحث عن الحقيقة»، بينما هي في واقع الأمر عُشبة خانقة اسمها «الشَكّ».

الفصل الأول

هاجس قيمة النفس

المحبة لا تحسِد ولا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تطلب ما لنفسها

ليس الحَسَد والتَفاخُر والانتفاخ إلا أعراض لمرض دفين مُتَوَطِّنٍ في قلوب البشر أجمعين، كما تتوطن الأميبا في أمعاء المصريين والبلهارسيا في قواقع النيل. هذا المرض الروحي الشائع هو «عَدم الأمان». وهو حالة مُزمنة من الخوف، لكننا لا نُسَمِّيه خوفاً لأنه درجة منخفضة من الخوف اعتدنا عليها كلنا كبشر. الخوف بصورة عامة هو شعور طبيعي ينتج عن التَعَرُّض للخطر، والهدف منه اتخاذ رد فعل يحمي الإنسان، كأن يواجه الخطر ويقضي عليه، أو يجري هارباً منه، أو يختبئ فيحمي نفسه منه، أو ربما يتجمَّد تماماً فلا يستطيع الإتيان بأي فعل.

عدم الأمان هو حالة مزمنة من القلق ناتجة من أفكار و معتقدات دفينة تدور أساساً حول القيمة المُتدَنية للنفس.

أما عدم الأمان فهو حالة مزمنة من القلق ناتجة من أفكار و معتقدات دفينة تدور أساساً حول القيمة المُتدَنية للنفس، وبالذات بالمقارنة بالآخرين. هذه الحالة تسبب عذاباً وصراعاً دائماً للإنسان لا يخرج منه إلا لأوقات قليلة عندما يُصادِف نجاحاً أو إنجازاً، كما أنها تزيده ألماً عندما يحدث نجاحٌ أو إنجازٌ لشخص آخر من المُقَرَّبين، وهذا يتسبب في عقد المقارنات الوهمية التي تنتهي دائماً بمشاعر سلبية تجاه النفس، أو تجاه من ينجح، وربما تتسبب في بعض السلوكيات الانسحابية، أو سلوكيات تضخيم الذات، وكل

هذه محاولات لحل الصراع وتخفيف الألم الداخلي.

الحَسَد وعدم الأمان

الحسد، أو الغيرة، هي الرغبة الشديدة في اقتناء الأشياء أو الارتباط بالأشخاص. وهي كشعور، يُمكن أن تكون إيجابيةً أو سلبية بحسب موضوعها وما يَنتُجُ عنها. الرغبة الشديدة في اقتناء كل ما هو صالح أمرٌ جيد بل وضروري للصلاح والنمو. أيضاً الارتباط الشديد بالأشخاص لدرجة الغيرة عليهم، أمرٌ ضروريّ للعلاقات الحميمة. من الطبيعي والواجب أن يغار الزوج على زوجته والزوجة على زوجها. وهذا يعني ألا يَرضى الزوج أن تكون زوجته لآخر، ولا تقبل الزوجة أن يكون زوجها لأخرى. وإن خَلَت المحبة من هذه الغيرة، لا تكون محبة، وإنما إهمال ولا مُبالاة.

الله يغار علينا كغيرة الزوج على زوجته فلا يرضى أن نكون لسواه. ويعتبر الكتاب المقدس أن عبادة «آلهة أخرى»، زنى روحيٍ أي خيانة روحية تُشابِه الخيانة الزوجية.[1] يمكن أيضاً أن نغار على بعضنا البعض روحياً والمقصود بهذه الغيرة الروحية أن نهتم ونرغب رغبة شديدة في خير بعضنا البعض روحياً. وهذا الشعور كثيراً ما يشعره الآباء تجاه الأبناء، سواء الجسديين أو الروحيين.[2]

الشعور الشديد بالرغبة، شأنه شأن المشاعر القوية عموماً، يُمكن أن يتحول إلى عذاب، إذا اقترنت الرغبة الشديدة في الأشياء بحالة داخلية من عدم

١ يشوع ٢٤: ١٩. و رسالة يعقوب ٤: ٤ (ومن المثير أن غيرة الروح القدس على المؤمنين في هذه الفقرة تُسمى في الترجمة العربية (فان دايك) "حَسَد" ـــــ الروح الذي حلّ فينا يشتاق إلى الحسد. أي أن الروح القدس يغار على المؤمنين من أن يجمعوا في قلوبهم بين محبة الله ومحبة العالم.

٢ رسالة بولس الرسول الثانية لأهل كورنثوس ١١: ٢ . و الرسالة لأهل غلاطية ٤: ١٧. ١٨

الأمان وعدم الثقة في النفس والآخرين، فتتحول الرغبة العاديَّة في اقتناء الأشياء إلى وَلع شديد بها لتسكين الإحساس الدفين بالصِغر وعَدم القيمة. وإذا زاد الإحساس بالصِغر وعدم القيمة، تكون هناك رغبة، ليس فقط في الحصول على الأشياء ولكن أيضاً في زوالها من عند الآخرين وذلك لتحقيق التفوق وتهدئة الشعور بالنقص.

عدم الأمان هو حالة روحية تنتج من قرار روحي لا واعي بأن يستمد الإنسان أمانه من ممتلكاته وقدراته وإنجازه. وتفوقه على الآخرين.

هذا بالنسبة للحَسَد في الأشياء، أما الحسد في العلاقات (الغيرة) فيمكن أن تتحول الغيرة المحمودة والمطلوبة إلى سيطرة وتَمَلّك، وذلك أيضاً بقصد تهدئة الخوف الداخلي وعدم الثقة بالنفس وبالتالي بالآخرين. لهذا فإن المحبة الحقيقية لا تحسد بهذا المفهوم الخائف والمُسَيطِر. المحبة الحقيقية، للنفس وللآخر، تغار على الآخر، لكن في نفس الوقت تتركه حُراً ثقةً فيه وفي النفس. المحبة الحقيقية تطلب التزام الطرف الآخر ولا ترضى به بديلاً، لكنها تنتظر أن يحدث هذا الالتزام عن طيب خاطر، وبحرية تامة وليس عن طريق السيطرة والتَمَلُّك. فإن لم يكن الالتزام قريناً للحُرية لا يُعَبِّر أبداً عن المحبة.

عدم الأمان هو حالة روحية تنتج من قرار روحي لا واعي بأن يستمد الإنسان أمانه من ممتلكاته وقدراته وإنجازه وتفوقه على الآخرين. باختصار أن يستَمِدَّ الإنسان أمانه من نفسه. هذا القرار الذي أصاب البشرية بشكل وبائي، هو مضاد للمحبة ومضاد لملكوت الله، بل ومضاد لله بشكل أساسيّ. والمأساة التي نعيشها هي أننا نتخِّذُ هذا القرار بشكلٍ قهري ومستمر في الوقت الذي يَظُنُّ عقلُنا الواعي أننا نحب الله ونخضع له.

هذا القرار الروحي يُوَلِّد فينا مجموعةً من الأفكار التي صارت راسخة حتى أنها أصبحات معتقدات لا تُناقش. هذه المعتقدات تسود تماماً على حياتنا وتشكل الطريقة التي نستقبل بها الأحداث والعلاقات وتُنتِج فينا مشاعر مؤلمة من الخوف والقلق والحزن من ناحية، والسعادة واللذة الزائقة والمؤقتة من ناحية أخرى وذلك استجابة للأحداث والمواقف والعلاقات المختلفة:

- نقلق من نجاح الآخرين لأننا نؤمن بعقيدة تقول أن «نجاح الآخرين يعني فشلنا». عقيدة صنعها فينا الآباء والأمهات والمدارس ونُظُم التعليم عبر أجيال من خلال المقارنات بالدرجات والشهادات والمراكز.

- نغار عندما يحصل الآخرون على بيوت وسيارات أكبر وأجمل لأننا نؤمن بعقيدة تقول أن «قيمة ونجاح وسعادة الإنسان هي في ما يمتلك». عقيدة صنعها فينا المجتمع الذي تسوده قيم الأقتناء والتكنيز ويَبُث «خدماته الروحية» طوال الليل والنهار على أجهزة الإعلام، وتلاحقنا شعاراته و«قوانين إيمانه» في كل مكان من خلال اللافتات الإعلانية التي تقول عبارات، مثل: «تَمَيَّز بما تمتلك» و «انتَمِ للصفوة»، وغيرها.

- نغضب أكثر من اللازم عندما نتعرض لانتقادات بشأن ما نفعله أو ما نقوله، ونفرح أكثر من اللازم عندما يصيبنا مديحٌ أو إطراء. لأننا نؤمن بعقيدة تقول «أن قيمتنا تنبع من تقييم الناس لنا».

هذه المشاعر قوة عظيمة تُحركنا وتجعلنا نبحث عن المال ونلهث خلف النجاح والإنجاز، نصُنع العلاقات، ونقطع العلاقات، وغيرها من السلوكيات التي ننساق وراءها دونما تفكير لأنها تُحقُق لنا اتزاننا الذي نفقده عندما تُثار فينا هذه المعتقدات مُنتَجةً خوفاً وقلقاً لا نستطيع احتماله.

> المحبة (آجابي) لا يُمكن الحصول عليها إلا من خلال قرار روحي إرادي واعي بالخروج خارج النفس إلى الله، والكون والآخرين.

ولكون هذه المعتقدات خاطئة وغير منطقية، لأنها مُنافية للفطرة التي خلقنا الله عليها، فإننا نفشل دائماً في تحقيق الأمان ونظل نطارده كالسراب. ولعل الدليل الأكبر على فشلنا البشري في تحقيق هذا الأمان هو أننا في محاولاتنا للسيطرة على الأشياء والأشخاص، تسيطر هذه الأمور علينا في صورة الإدمانات المختلفة التي يعاني منها البشر في كل عصرٍ ومكانٍ. فصار الطعام والجنس والمال و العمل واقتناء الأشياء مشكلات إدمانية مزمنة تفضح فشلنا في تحقيق الأمان من خلال السيطرة.

أما المبدأ الروحي الذي يدور حوله ملكوت الله فهو أن مصدر الأمان الحقيقي هو المحبة، وبالتحديد المحبة غير المشروطة (آجابي). هذه المحبة لا يُمكن الحصول عليها إلا من خلال قرار روحي إرادي واعي (هذه المرة) بالخروج خارج النفس إلى الله والكون والآخرين، ورؤية الحياة من مناظير أخرى تحقق الحرية من سلطان الحَسَد والغيرة والسيطرة والتملك، وبالتالي تحقق تدريجياً الأمان الأكثر ثباتاً واستقراراً مع تَقَلُّبات الحياة.

التفاخُر والنرجسية

لم يكن الوجه الجميل الذي رآه «نركسوس» تحت الماء سوي صورة وجهه الجميل تنعكس على صفحة الماء الصافي الساكن.

نشأ «نركسوس»[٣] (الاسم الإغريقي لنرجس) في أحضان المياه الجارية والمروج الخضراء. لم يره إنسان أو إله دون أن يعجب بجماله. تخطى «نركسوس» مرحله الصبَا وأصبح في ريعان الشباب. كان يزداد جمالًا وبهاءًا كلما تقدم في العمر. أحبه رفاقه وأصدقاؤه وأُعجِبَ به الذكور والإناث، لكنه كان لا يتحاوب مع احد من المعجبين به. كان يصدهم جميعا ذكورًا وإناثًا لم يكن يعرف الحب ولم يكن يقيم للعواطف وزنًا. وذات مرة، كان«نركسوس» يمارس هوايته المفضلة في الصيد عندما اشتد به الظمأ. فجأة، وقع بصره على منطقة ظليلة يتوسطها غدير. اتجه في لهفه نحو الماء. كانت الأشجار الباسقة من حوله تغمر المنطقة بالظلال. اقترب من الغدير. أحس بالهواء الرطب يمسح وجهه. ويجفف عرقه. ويبعث في جسده رعشة لذيذة. انبطح نركسوس على الأرض الرطبة. مال بوجهه الجميل نحو صفحه الماء. شرب وارتوي وأحس بلذة غير عادية. شعر براحة لم يشعر بمثلها من قبل وهو منبطحٌ على حافة الغدير. كانت مياه الغدير صافية وصفحتها الساكنة مثل مرآة لامعة. هم برفع وجهه من فوق سطح الماء. فجأة رأي تحت الماء وجهاً بشرياً رائع الجمال. توقف «نركسوس» عن الحركة. تحجَّرتَ مقلتاه وظل يحملق في العينين الجميلتين

---

٣ ويكيبيديا

تحت الماء. لاحظ أنهما أيضا تحملقان في عينيه. ارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة رقيقة. ارتسمت على شفتي الوجه الجميل تحت الماء أيضا ابتسامه لاتقل عذوبة ورقة. أحس بوخزة بسيطة في صدره ولكنها لم تؤلمه. أحس برعشة خفيفة تسري في جسده. لم يحاول أن يعرف سببها. غادر المكان عائدا إلي بيته وهو يُحِسُّ بشيءٍ لا يعرف كُنْهَهُ.

أقبل الليل وساد الكون صمتٌ رهيب. ظل «نركسوس» ساهرًا في مضجعه لا يفارق الوجه الجميل خيالَه. أحسَّ برغبةٍ شديدة للذهاب إلي الغدير. ذهب إلي هناك وتسلل في هدوء حتي لا يزعج صاحبة الوجه الجميل. كان القمر يلقي بضوئه الفضي على صفحة الماء الصافي الساكن. عندما أصبحت جبهة «نركسوس» وعيناه فوق صفحة الماء، استولت عليه الدهشة. لاحظ أن صاحبة الوجه الجميل تنظر إليه من تحت الماء. يالها من عاشقة مخلصة. مازالت ساهرة مثله. تنتظر مجيئه في سكون الليل. أدرك «نركسوس» أنه أحب. استعذب الحب. لَوحَّ بَيده الجميلة لحسنائه. لَوَّحَت حسناؤه بيدها الجميلة من تحت الماء.

ظل «نركسوس» يتردد على الغدير في الليل وفي النهار. يلوح بيده لمحبوبته من فوق الماء، فتلوح له محبوبته من تحت الماء. يحييها وترد التحية. يبثها عبارات الغزل الرقيق. تحرك شَفَتَها فتصل إلي سمعه عبارات غزل مماثلة. يمد يده في الماء محاولا أن يمسك بحسنائه. لكن صفحة الماء تهتز وتختفي حسناؤه على الفور. ضاقت به الدنيا وتملكه اليأس وسيطر عليه الحزن. إنه يحب حسناءه ويعشقها. لكنها لا تبادله الحب بل تهرب منه. إنه عاشق منبوذ. ولم يغادر «نركسوس» حافة الغدير. لم يتوقف لحظه واحدة عن النظر

إلي صفحة الماء. قضي ليله ونهاره محاولًا أن يُمسِك بحسنائه. لكنه لم يكن يتمكن من ذلك. ذبل عودُهُ وراحَ جماله وأصبح كسيرًا ذليلًا لا تعرف الابتسامة طريقها إلي شفتيه. قضي عليه الحزن حتى فارق الحياة . لم يكن الوجه الجميل الذي رآه «نركسوس» تحت الماء سوي صورة وجهه الجميل تنعكس على صفحة الماء الصافي الساكن.

ظلت هذه الأسطورة اليونانية القديمة رمزاً لمن يُفرِط في حُب نفسه حتى يغرق فيها. هذا النوع من محبة الذات هي الصورة العكسية للمحبة (آجابي) التي هي الخروج خارج النفس للآخر والتي تؤدي للحياة والنمو بينما تؤدي النرجسية في النهاية إلى الموت غرقاً في الذات لتُثبِت أنها ليست محبة النفس الصِحّية التي تستهدف خير النفس والآخرين.

هذا القرار الروحي بالانحصار في النفس يُنتِج مجموعةً من الأفكار والمعتقدات مثل: «أنا دائماً على صواب والآخرون على خطأ» أو «لا أحد يفهمني. الكل يظلمونني»، «يَغارون مني ومن نجاحي»، «من مِثلي هم قِلّة نادرة في هذه الحياة»، «الذكاء لا يُمكن أن يكون موجوداً في الآخرين مثلما هو موجودٌ فيّ»، «يجب أن أُثبت وجهة نظري»، «يجب أن يقلدني الآخرون»، «يجب أن أُعَبِّر عن آرائي بقوة فأنا المِثال». هذه المعتقدات غير منطقية و بشكل واضح، ربما يثير السخرية في الكثير من الأحيان، لذلك فإننا لا نستطيع أن نُفصِح بهذه المعتقدات، ولا حتى أن نعترف لأنفسنا أننا مؤمنون بها. لذلك فهي تسكن منطقة ما «تحت الوعي»، لكن يظل الدليل على وجودها هو فقط ما تُنتجه فينا من مشاعر وما تتسبب فيه هذه المشاعر من سلوكيات التفاخر والانتفاخ و التَحَزُّب (أي الانتماء المبالغ فيه للآراء

الفكرية أو السياسية أو الشخصية) أو العُجب (الإعجاب المبالغ فيه بالنفس) والإسهاب في الكلام عن النفس وذكر الإنجازات، والتعبير عن الآراء المختلفة بمناسبة وبدون مناسبة، بل وخلق المناسبات للكلام عن النفس، والدخول في نقاشات وجدل لا ينتهي مع الآخرين بقصد إثبات وجهة النظر.

المحبة هي قرار إرادي واعي «ضد» هذه الأفكار والمعتقدات والسلوكيات، وأحياناً يكون ذلك ببعض العُنف مع النفس إذا لزم الأمر. لذلك يقول الرسول بولس لأهل فيلبي أن يُتمموا فرحه بأن يكون فيهم هذا الفكر الواحد الذي يقاوم التحزب والعُجب، ويتخذ القرار بالتواضع وحساب الآخرين أفضل من النفس، والنظر كل واحد لا إلى ما لنفسه بل إلى ما هو لآخرين أيضاً[٤]

الخروج

ليست المحبة شعوراً ولا هي علاقة، ولا هي أيضاً وصية تُطاع. إنها موقف روحي من الحياة يدور حول الخروج من من النفس لرؤية الكون وجماله والآخرين وحقيقتهم، والله الذي خلق الكون وأبدع في صُنع الإنسان. سوف لا نستطيع تحقيق الكثير من النجاح ونحن نقاوم مشاعر الحسد وسلوكيات التفاخر والانتفاخ دون أن نتخذ ذلك القرار الروحي بالخروج خارج النفس. وليس ذلك فقط بل نحتاج قبل ذلك أيضاً للدخول داخل النفس، وذلك للاعتراف بحقيقة المشاعر والأفكار، ولاكتشاف تلك

المحبة موقف روحي يدور حول الخروج من من النفس لرؤية الكون وجماله والآخرين وحقيقتهم، والله الذي خلق الكون وأبدع في صُنع الإنسان.

٤ رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبى ٢: ٢ - ٤

المعتقدات التي نشأت وتغلغلت فينا وفي الثقافة البشرية كلها عبر أجيال عديدة من الالتزام بالقرار الروحي الأناني المنحصر في النفس. هذه القرارات وتلك الممارسات الروحية ليس مكانها فقط وقت الصلاة و ليست الاجتماعات الروحية فقط هي المكان الذي نمارسها فيها، وإنما ينبغي أن تكون أسلوب حياة وطريقة في التعامل مع المشاعر والأفكار في كل المواقف التي تصادفنا طوال اليوم.

- *تسير في أحد شوارع المُدن الجديدة فترى قصراً جميلاً مُبهِراً.*

بم تشعر؟ إعجاب؟ ربما. ثم يتحول الإعجاب إلى تَعَجُّب؟ وتساؤل: «تُرى كم يتكلف بناء قصرٍ كهذا؟» ربما تشعر ببعض من مشاعر الغضب؟ أو الغيرة؟ تسأل نفسك: «لماذا هذه المشاعر؟ ومن أين تأتي؟» ربما تجيبك نفسك قائلة: «لا ينبغي أن تكون هناك مثل هذه المستويات في بلد فقير كمصر». ربما تُجيبُ نفسك قائلاً لها: «بنفس المنطق يمكن أن نقول أن مستوى معيشتك أنت أيضاً أعلى من كثيرين، فلا ينبغي أن تَعيش على هذا المستوى في بلد فقير كمصر؟!»

أمام مشهد كهذا يُمكن أن تختار أن تستسلم لمشاعر الغضب والغيرة والحقد على أصحاب ذلك القصر، سواء من منطلق فردي أناني أو من مُنطلقات الظلم والعدل الاجتماعي. أو ربما تشعر ببعض من الألم من كون بيتك أصغر كثيراً وأكثر تواضعاً. أو ربما تختار أن تمتلئ بأفكار التَطَلُّع والرغبة في أن تمتلك يوماً قصراً كهذا ، أو على الأقل بيتاً أفضل مما أنت فيه. يمكنك أن تختار أن تُغرِق نفسك في هذه الأفكار، ويمكنك أن تتجاهلها وتمضي في طريقك حماية لنفسك من مثل هذه المشاعر. لكن يُمكنك أيضاً أن تختار أن

تنظر من منظور آخر، وتستخدم هذا المشهد كتدريبٍ على المحبة.

- رُبما تختار أن تتأمل جمال التصميم والبناء، والمجهود الكبير الذي بُذل في هذه النقوش وعدد العُمال الذين عملوا في هذا البناء، وتشكر الله من أجل الفن والإبداع والجمال الذي أضفاه هذا القصر على الحيّ.

- ربما تختار أن تشكر الله على فُرص العَمَل التي تسبب فيها بناءٌ كهذا. وتشكر الله من أجل الرواج الذي سمح بتشييد بناءٍ كهذا في بلدك، وتطلب من الله أن يبارك الجميع أغنياء وفقراء ويخلق المزيد من فرص العمل والرَوَاج الاقتصادي.

- رُبما تختار أن تَتَذَكَّر سُكَّانَ العشوائيات والعُشش وتصلي أن يدفع سُكان هذا القصر ضرائبهم بأمانة حتى تستطيع الدولة أن تقوم بتطوير هذه الأماكن وتُوَفِّر مياه شرب نظيفة ومجاري آدمية لسكان هذه المناطق.

- رُبما تختار أن تُفكر في سكان هذا القصر وتسأل نفسك «تُرى هل هم سعداء أم ليسوا كذلك؟ ما هي الأحداث التي تحدث تحت هذه القُبة الجميلة؟ وكيف تدور العلاقات هناك؟».

- رُبما تختار أن تأخذ خطوة أخرى للعُمق فتُصلي من أجل سُكان هذا القصر والعاملين فيه طالباً لهم الخير الأسمى. والخير الأسمى هو دائماً خيرٌ روحيّ.

أتصور أنك إذا قررت توجيه فكرك بهذه الطريقة، فسوف تعود إلى منزلك شاعراً بمزيد من القوة والحرية، وكأنك امتلكت هذا القصر. بل لعلك بالفعل امتلكت ما هو أعظم منه. امتلكت قلبك وأطلقته حُراً في سماء المحبة.

كثير من الأحداث والمواقف يُمكن أن تدعها تمر وتدع أفكارك تدور بالطرق المعتادة، ويُمكن أن تجعلها تدريبات للمحبة، وذلك بأن تضع نفسك في مكان المحبة وتنتظر أن تَعمَل المحبة عَمَلها بقوة الله، فتقضي على الحسد والتفاخر والانتفاخ والعُجب والتحزب، فالمحبة لا تحسد ولا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تطلب ما لنفسها.

- *امرأة جميلة جذابة تقترب منك وُربما تشعر بإعجابها بك. وأنت متزوج.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخل داخل نفسك فتعترف لنفسك بالانجذاب إليها، وتواجه نفسك بحقيقة أنك تريد أن تدخل معها في علاقة رومانسية وربما جنسية؟

- تخرج خارج نفسك لترى الصورة الأوسع للكون. هذه الجاذبية الجنسية وضعها الله للحفاظ على الخليقة. لا تحتقر رغبتك ولا طبيعتك الجنسية، لكن ضعها في حجمها الطبيعي، فهي موضوعة في الكون وفي أجساد الكائنات، ليس فقط لمتعتك الشخصية وإنما لأغراض أوسع وأسمى.

- تتخيَّل تأثير مثل هذه العلاقة، إذا حدثت، عليك وعلي هذه السيدة،

وعلى زوجتك، وزوجها، على أولادك و أولادها من الناحية الروحية. ما هو الضرر الذي سوف يقع عليكما؟ فترى هذا الضرر وتكرهه.[٥]

- *شخص يقول آراءًا أنت مختلف معه فيها، بل وتراها آراءًا مُضِرّة.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخل داخل نفسك فتعترف لنفسك بأنك تشعر بالتهديد وبالرغبة في أن تُعلن آراءك وتنتصر عليه فكرياً.

- تخرج خارج نفسك لترى الله؛ كيف يحتمل المختلفين معه، والذين ينسبون إليه ما ليس فيه، ولا يتدخل ليثبت آراءه ويقاوم مقاوميه.

- تخرج خارج نفسك وترى هذا الشخص وتحاول أن تفكر أنه من الممكن أن يكون هناك بعض الصواب في آراءه أو بعض الخطأ في آراءك، وتحاول أن تُقَدِّر كيف أنه يؤمن بهذه الآراء ويراها مفيدة تماماً كما تؤمن أنت بعكسها.

- *شخص يمارس نفس مهنتك يفشل فشلاً ذريعاً ويتكلم الناس عليه أمامك بطريقة سلبية.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخل داخل نفسك وتعترف لنفسك أنك تشعر ببعض السعادة.

- تخرج خارج نفسك وترى كيف أن الفشل وارد بالنسبة للجميع وأن

---

٥ المزمور السادس والثلاثون

فشله ليس نجاحاً لك ونجاحُهُ ليس فشلاً لك.

- تحاول أن تشعر بما يشعر به هذا الشخص، وتُذكر نفسك أنه رُبما يتكلم، أو سوف يتكلم آخرون عنك أنت أيضاً مثل هذا الكلام، أو ربما أسوأ منه.

- *موظف زميلك ينال الترقية التي كنت تنتظرها وتحلم بها والجميع يهنئونه.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخل داخل نفسك وتعترف لنفسك أنك حزين.

- تخرج خارج نفسك وتحاول أن ترى الصورة الكاملة لحياتك و تتذكر كثير من النجاح الماضي، وربما الحاضر في مجالاتٍ آخرى. وكيف أن الحياة لا تقف على نجاح أو فشل.

- تخرج خارج نفسك إلى داخل حياة ذلك الزميل، وتحاول أن ترى وتحترم فرحته بترقيته، تماماً كما كنت ستفرح إذا كنت أنت الذي حصلت عليها، وتبدأ في أن تتوحد بفرحه وتفرح معه.

- *شخص ساعدته لكنه نَسَبَ الفضل لشخص آخر.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

- _____

- *شخص آخر ينجح فيما فشلت أنت فيه.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- _____

_____

- _____

_____

-

-

-

الفصل الثاني

مُعضِلَة الصَبر

المحبة تتأنّى وترفق و ترجو و لا تحتَدّ

وتحتمل كل شيء، وتصبر على كل شيء

المَحَبّة تتأنى ولا تفقد الأمل. تَرفق ولا تتعجل ولا تحتَدّ. تظل تَروي الأمل مؤمنةَ أن الحياة موجودة وفاعلة وإن لم تر بعد أوراقها وأزهارها وثمارها.

منذ عِدّة أسابيع قررت أن أشتري بعض الشجيرات للحديقة الصغيرة في فناء منزلنا. طَلَبت من البستاني أن يُحضر بعض شتلات الزهور مثل الياسمين الهندي، فجاءني بأعوادٍ عارية تشبه العُصيّ المَيِّتة. وعندما شاهد نظرات الدهشة والاستنكار على وجهي بادرني قائلاً: «لا تقلق. هكذا يبدو الياسمين الهندي في الشتاء، لكن عندما يأتي الربيع سوف تفاجئ بهذه الأعواد تورِق وتُزهِر من جديد». صَدَّقته، خاصَة أنني تذكرت أن والدتي قالت لي نفس الكلام عن شجرة من نفس النوع كانت قد تركتها في شرفة منزلها وسافرت لشهور خارج البلاد ولم تقم برَيّها وعادت لتجدها جافة ميتة لكنها ظلت لأيام ترويها متشبثة بإيمان كان وقتها يبدو غير منطقيّاً، وبعد أسابيع من التمسك بهذا الإيمان، فُوجِئَتْ ذات صباح

بورقتين غضتين صغيرتين تبرزان من هذه العود الميتة، ثم بعد عدة أيام شاهَدَت زهرةَ ياسمين وليدة ببياضها الخارجيّ الناصع وعُمقها المشوب بالصُفرة الزاهية. لذلك أتَمَسَّكُ أنا أيضاً بنفس الإيمان وأنتظر.

الصبر على الناس

هذا هو الصَبر الذي تصبره المحبة على الآخرين. المَحَبّة تتأنى ولا تفقد الأمل. تَرفِق ولا تتعجل ولا تحتَدّ. تظل تَروي الأمل مؤمنةَ أن الحياة موجودة وفاعلة وإن لم تر بعد أوراقها وأزهارها وثمارها. هذا النوع من صبر المحبة الذي يصفه بولس الرسول هنا في أصحاح المحبة، كان قد تَكَلّم عنه مراراً سواء بتعليم مُجَرَّد أو من خلال سرده لتعامله شخصياً مع مثل هذه المواقف التي كانت تتحدى وتكشف مدى المحبة التي في قلبه.

هناك موقفان عمليان من الصبر والتأني والرفق مارسهما بولس الرسول مع تلاميذه الذين يأخذ نموّهم وقتاً طويلاً ومجهوداً شاقاً، فيكتب لأهل غلاطية[1] الذين يقول عنهم أنهم بعد أن أصبحوا يعرفون الله الحقيقي، يعودون إلى بعض المبادئ الضعيفة وعديمة الفائدة (من أشكال التمسك الحرفي بالطقوس والأعياد اليهودية) ويريدون أن يستعبدوا أنفسهم لها مُجدداً. لذلك نجده يخاطبهم خطاباً مُفعماً بالمشاعر فيقول: «أخاف عليكم! أخاف أن تعبي عليكم كان بلا فائدة» ويضيف: « أتَوَسَّل إليكم أيها الإخوة أن تكونوا مثلي كما أنّي مثلكم... فهل صِرتُ عدواً لكم لأني أخبرتكم بالحق». من الواضح أن بولس كان يعاني من رد الفعل السلبي من بعض من أهل غلاطية لتعليمه

١ رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية (الترجمة العربية المبَسَّطة) ٤: ٨- ٢٠

وتوبيخه لهم. وكم يتعرض لذلك كل من يريد أن يُجري إصلاحاً عقائدياً لاهوتياً في أذهان من اعتادوا على أفكارٍ ليست سوى تقاليد وقشور. ويختتم هذه الفقرة بالعبارة الشهيرة التي تصف صَبرَه وألمه وفي نفس رجاؤه:

«يا أولادي، ها أنا أتألم الآن لأجلكم ثانية، كما تتألم المرأة عند الولادة، إلى أن تصبحوا مشابهين لصورة المسيح. أَوَدُّ لو أنِّي معكم الآن لأتحدث إليكم بطريقةٍ مختلفة، لأنني محتار في طريقة التعامل معكم.»

هذه هي ثمار شجرة المحبة في قلب بولس تجاه تلاميذه من الغلاطيين. تلك المحبة التي تتأنى وترفق وترجو، مثلما ترجو المرأة أن تتم عملية الولادة وتنظر إلى وجه مولودها لتجد صورة عريسها الحبيب باديةً على وجهه.

مرة أخرى يواجه بولس الرسول موقفاً مشابهاً، لكنه رُبما أقسى. وقد كان مع مؤمني كورنثوس، فعلى مدار فقرة كبيرة من رسالته الثانية لهذه الكنيسة، يتكلم عن معاناته، ليس فقط في مشقات الخدمة من سفر واحتياجات واضطهادات من الذين هم من خارج، لكن أيضاً من المؤمنين الذين لا يَنمُون بل يبادلون محبته لوماً وتأنيباً وإهانات بما يدل على أن شجرة المحبة لم تنم بعد في قلوبهم. بعد أن يُعدد ألوان معاناته المختلفة في الخدمة،[٢] يختتم هذا الجزء بفقرة تُعَبِّر عن صبره وأناته معهم ورِفقه بهم.

« وها أنا مستعدٌ لزيارتكم للمرة الثالثة. ولن أكون عبئاً عليكم في هذه المرة أيضاً. فأنا لست مهتماً بمقتنياتكم، بل بكم أنتم. فليس

[٢] رسالة بولس الرسول الثانية لأهل كورنثوس (الترجمة العربية المبسطة) ١١: ١٦- ١٢: ١٦

الأبناء هم المسؤولين عن توفير المعيشة لوالديهم، بل الوالدون لأبنائهم. أما من جهتي، فأنا مستعدٌ أن أُنفِقُ مالي ونفسي من أجلكم. فهل تَقِلُّ محبتكم لي بينما تزيدُ محبتي لكم؟ فليكن ذلك!»[٣]

لذلك فعندما يُقدم بولس الرسول وَصاياه الرعوية لكنيسة تسالونيكي، فهو يقدم هذا من مُنطلق خبرة شخصية فيقول في الرسالة الأولى: «اسندوا الضعفاء وتعاملوا مع الجميع بصبر»[٤] وفي الرسالة الثانية يقول: « أما أنتم أيها الإخوة فلا تَمَلُّوا من عمل الخير».[٥]

وعندما يقدم أيضاً وصايا مماثلة لكنيسة أفسس، نجده يلمس أيضاً منطقة الغضب والحدة الناشئة من نفاذ الصبر فيقول: «انزعوا من داخلكم كل مرارة وسَخَطٍ وغَضَب وصياح وإهانة وكل خُبث(وهذه هي أشكال التعبيرات الخاطئة عن الغضب من ثورة وكراهية وعُنف سلبي، يسميه هنا «خُبث» وكونوا لطفاء وشفوقين بعضكم نحو بعض، مستعدين لمسامحة الآخرين كما سامحكم الله أيضاً في المسيح».[٦]

المواجدة

يكاد لا يكون من الممكن الصبر على الناس دون أن نستطيع *الخروج خارج أنفسنا وإطارنا المرجعي الشخصي، لندخل إلى حياة الآخرين ونرى* معاناتهم هم أنفسهم، وكيف يرون الدنيا من منظورهم. هذا التدريب أمرٌ

٣رسالة بولس الرسول الثانية لأهل كورنثوس ١٢: ١٤- ١٦

٤ رسالة بولس الرسول الأولى لأهل تسالونيكي ٥: ١٤ب

٥ رسالة بولس الرسول الثانية لأهل تسالونيكي ٣: ١٣

٦ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٤: ٣١- ٣٢

ضروري للمحبة وهو تدريب «المواجدة» (الاشتراك في الوجدان).[٧] لن نستطيع أن نصبر على الآخرين دون أن نفرح مع فرحهم، و نبكي مع بكائهم. ولن نستطيع أن نفعل ذلك دون أن نستمع إلى قصصهم وننصت إلى مشاعرهم وأفكارهم وصراعاتهم، ولن نستطيع أن نفعل ذلك دون أن نخرج خارج ذواتنا وننسى (مؤقتاً) أفكارنا ومشاعرنا وصراعاتنا الشخصية. في هذه الحالة علينا أن «نحسب الآخرين أفضل من أنفسنا»، وهذا لا يعني كراهيتنا أو احتقارنا لأنفسنا، وإنما يعني تقديم الآخر الذي يعاني، على النفس، حتى نستطيع أن نخرج مما نحن فيه لنعرف ما هم فيه.

لن نستطيع أن **نَصبِر** دون أن **نَعرِف** ما يشعر به الآخرون، ولن نستطيع أن نعرف دون أن **نُنصِت**، ولن نستطيع أن نُنصِت دون أن **نَنْسى** أنفسَنا مؤقتاً.

لكي نمارس هذه المواجدة نحتاج لإتقان مهارتين؛ وهُما مهارة *الأسئلة المفتوحة النهاية* التي بها نَحُث الآخرين أن يحكوا ويُعبروا عما هم فيه مثل (كيف شعرت؟ ما معنى هذا بالنسبة لك؟ ثم كيف فكرت في هذا الأمر؟ وهكذا) ومهارة *الإنصات المُتمعِّن* الذي نحاول به أن نُعيد على مُحَدِّثنا ما قاله، ولكن بعباراتنا نحن، بدون رفض أو موافقة، لكي نؤكد على أننا سمعنا وفهمنا. ليس المُهم الآن إن كُنّا نوافق أو لا نوافق على رؤيتهم ومواقفهم، لكننا ما نريد أن نُوَصِّلَهُ هو أننا نقبلها ونحترمها.

رُبما لن تسمح الظروف أن نفعل هذا في كُل حالة ومع كل إنسان، لكننا

٧لمزيد من التفاصيل. هناك أكثر من كتاب أتناول فيه هذا التدريب وتلك المهارة مثل "*مهارات الحياة*" و "*مهارات المشورة*" (ص ٢٩) و "*صحة العلاقات*" وغيرها.

بسبب التكرار و التَمَرُّس في هذا التدريب من التدريبات الروحية،[٨] يمكننا في بعض الأحيان أن نستنتج ما يُمكن أن يكون في قلوب الناس من حولنا، فنستطيع أن نتأنى ونرفق ونصبر ونحتمل.

- *زوجتك مُنشغلة في عملها ولا تعطيك ولا تُعطي البيت الاهتمام الذي تتوقعه.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخل داخل نفسك فتعترف أنك غاضب وأن وراء هذا الغضب أفكار مثل: «هي تعتبر عملها أهمّ من بيتها ومنّي» أو «هي كسولة. كان من الممكن أن تهتم بعملها وبيتها معاً مثل الكثيرات من النساء» وربما تعقد مقارانات بينها وبين أمّك أو نساء أخريات حولك. ربما تكتشف التناقض بين أفكارك الواعية التي تناصر عمل المرأة ومعتقدات دفينة من الطفولة تقول مثلاً «من تهتم بأي شيء آخر غير زوجها لا تُحبّه» وذلك رُبما لأن أمك كانت لا تعمل ولا تهتم إلا بأبيك.

- تخرج خارج نفسك لترى الصورة الأوسع للعمل والبيت وتحاول أن ترى إيجابيات حقيقية موجودة فيها وفي علاقتها بك وبالأسرة والأبناء، وكيف أن عملها أيضاً يساعدك في المصاريف، ويُنَمّي شخصيتها وهذا يعود بالفائدة عليك وعلى الأولاد.

- تدخل داخل عالمها وترى أهمية العمل في حياتها وتحقيقها

٨ تقليدياً الشَركة هي أحدى التدريبات الروحية الضرورية. وبهذه الطريقة من التفاعل الوجداني نحصلَ على مستويات أعمق من الشركة.

لقيمتها في الحياة وكيف أن من حقها أن يكون لديها دعوة في الحياة والمجتمع أكبر من مجرد المنزل، مثلك تماماً! وتحاول أيضاً أن ترى صراعها والمجهود الذي تبذلها لكي تهتم بالمجالين معاً.

مثل هذا المكان «الفكري الوجداني» الذي تضع نفسك فيه يجعلك أقدر على استقبال وتنمية المحبة. ومتى جاءت المحبة فهي تجعلك تتأنى وترفق وتصبر وترجو. رُبما تَطلُب مزيداً من الاهتمام. لكنك إذا طلبت فسوف تطلب بمحبة وليس بهجوم، فتكون النتيجة أكثر إيجابية.

- *زَوجِك لا يقضي معك وقتاً خاصاً ولا يتكلّم إلا في العمل والأمور العملية.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- تدخلين داخل نفسك لتعترفي أمام نفسك بأنك تشعرين بالحزن والهَجر. رُبما أيضاً تقارنين بينه وبين آخرين من الرجال الذين يستطيعون التعبير عن مشاعرهم والكلام الوجداني العميق. رُبما تكتشفين بداخلك بعض من معتقدات الاعتمادية مثل: «يجب أن يقوم زوجي بتسديد كل احتياجاتي العاطفية» أو «علاقتي بزوجي هي التي تحدد حالتي النفسية» وتواجهينها.

- تخرجين خارج نفسك لترى الصورة الكاملة فالرجال دائماً يختلفون عن النساء في هذا الأمر. بالطبع هناك رجال أقدر من غيرهم على المشاركة الوجدانية، لكنهم قِلّة. كما تحاولين أن تري صورة كاملة لزوجك بما فيه من ميزات أخرى تتعلق ربما بنجاحه

في العمل، والمستوى المادّي الذي يُتيحه ذلك للأسرة أو اهتمامه بالأولاد أو غير ذلك.

- تدخلين إلى العالم الداخلي لزوجك. تتأملي نشأته وعلاقته بأبيه وأمّه وطبيعة أسرته. أيضاً عمله والتحدّيات التي تواجهه. ربما تفكرين في الصلاة من أجله في وسط هذه التحدّيات.

مثل هذا المكان «الفكري الوجداني» الذي تضعين نفسك فيه يجعلك أقدر على استقبال وتنمية المحبة. رُبما تبادرين أنت بدعوته للخروج معاً والكلام معاً وتتأنين وترفقين به وهو يخطو تدريجياً نحو مزيد من القدرة على الكلام والتعبير عن المشاعر. وحتى إن لم يتغير، تتغيرين أنت وتصبحين أكثر قدرة على قبوله كما هو.

- *مضايقات في الطريق. في القيادة أو في المواصلات*

كيف تفكر «المحبة»؟

- _____

_____

- _____

_____

- _____

- _____

_____

- _____

- *صديق قال لك كلاماً ضايقك.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

- *ابنك المراهق يعاملك بنفاذ صبر.*

كيف تفكر «المحبة»؟

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

- _____

الصبر على متاعب الحياة

حتى الآن لا توجد منظومة فكرية لاهوتية للتعامل مع صعوبات الحياة بطريقة مُتَّزنة أفضل من «صلاة السكينة»[٩] التي تتخذها حركة التعافي (١٢ خطوة) شعارها، والدعاء الختامي التي تُختتم به كل اجتماعاتها.

٩ هناك جدلٌ كبير حول كاتب هذه الصلاة. تقليدياً هذه الصلاة منسوبة للاهوتي الألماني رينولد نيبور. إلا أن بعض المصادر الأخرى تنسبها إلى بعض الصلوات العامة والشائعة في إنجلترا في القرن الرابع عشر. يؤكد بيل جونسون مؤسس حركة التعافي أن أحداً لا يعرف بالتحديد من هو كاتب صلاة السكينة وذلك في كتابه Alcoholics Anonymous Comes of Age ص. ١٩٦

بين القبول الموافقة

تَكمُن السكينة في أن نعرف الفرق بين القبول والموافقة. بالطبع لا نوافق على متاعب الحياة ولا نحتفل بها، بل تهفو قلوبنا للراحة والسلام والسعادة و للكمال والاكتمال، فنحن مخلوقون على صورة الله وتوّاقون للرُقيّ والتطور. لكننا نقبل المتاعب كجزء من عالم لا نستطيع ممارسة السيطْرة الكاملة عليه. الله كامل وعادل لكن الحياة ليست كذلك، فالحياة ليست الله. لذلك تقول الفقرة الأولى من صلاة السكينة: *اللهم امنحني السكينة لكي أقبل الأشياء التي لا أستطيع أن أغيرها.* نحن كبشر مخلوقات لها قُدرات كبيرة ووعي مُتَّسع ومواهب خلّاقة، لكننا في النهاية مخلوقات محدودة تقف عاجزة أمام أشياء كثيرة في الحياة لا تستطيع تغييرها ولا حتى فهمها في الكثير من الأحيان. تنبع السكينة النفسية من اعترافنا بهذه الحقيقة فلا نستنفذ طاقتنا النفسية والروحية في محاولة تغيير ما لا نستطيع تغييره.

اللهم امنحني السكينة لكي أقبل الأشياء التي لا أستطيع أن أغيرها، والشجاعة لكي أغير الأشياء التي أستطيع أن أغيرها، والحكمة لأعرف الفرق بينهما. ساعدني أن أحيا يوماً بيوم، استمتع بكل لحظة في وقتها. ساعدني أن أقبل الصعاب، وأجتاز فيها لأصل إلى السلام. ساعدني لكي أقبل العالم والناس كما هم وليس كما أريدهم أن يكونوا. ساعدني أن أتغير أنا. واثقاً أنك صاحب السلطان وسوف تفعل كل شيء حسناً، إن سلمت قلبي وحياتي لمشيئتك. آمين.

الشجاعة للتغيير

اللاهوتي الألماني رينولد نيبور هو من أوائل من استخدموا هذه الصلاة وألقوا الضوء عليها، حتى أنه إعتُبِرَ كاتبها مع أنه لم يدَّعِ ذلك. يُحكى عن هذا الرَجُل أنه كثيراً ما شعر بالحزن أن الصلاة استُخدمت فقط لممارسة القبول (السلبي أحياناً) لمتاعب الحياة. كان نيبور معروفاً بأنه داعية أخلاقي ومُصلح اجتماعي يدعو دائماً للتغيير الأخلاقي للفرد والمُجتمع. الفقرة الثانية من الصلاة تقول *وامنحني الشجاعة لكي أُغير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحِكمة لأعرف الفرق بينهما*. بنفس القدر الذي نقبل به ما لا نستطيع تغييره، علينا أن نعمَل بكل قوتنا لتغيير ما نستطيع تغييره.[١٠]

- لا نستطيع أن نعرف كل شيء لكن نستطيع أن نعرف أكثر مما عرفنا سابقاً.

- لا نستطيع تغيير ما حَدَث في الماضي، لكن نستطيع أن نتعامل مع ما نستطيع تغييره من آثار لما حدث.

- لا نستطيع أن نغير حقيقة أن مزاجنا يتقلب، لكن نستطيع أن نُدَرِّب أنفسنا على العمل والإنتاج في كل الأحوال المزاجية، فهذا هو النجاح الحقيقي.

- لا نستطيع أن نُغير حقيقة مواهبنا وقدراتنا، لكن نستطيع أن نستثمر أكثر فيما نجيده.

- لا نستطيع أن نغير الناس، لكن نستطيع أن نُغير طُرُقنا في التعامل معهم، فنُعامل كل شخص بالطريقة المناسبة لشخصيته.

---

١٠ أوسم وصفي. *القلب الواعي ٢* (وعي الاتزان) (القاهرة ٢٠١٤)

الحياة والاستمتاع يوماً بيوم

الفقرة التالية من صلاة السكينة تقول *ساعدني أن أحيا يوماً بيوم. أستمتع بكل لحظة في وقتها.* عندما نقوم بحل الصراع بين ما علينا أن نقبله وما علينا أن نُغَيّره، فهذا يُوَّفر لنا طاقة نفسية وروحية هائلة نستخدمها في احتمال مصاعب الحياة. أيضاً الحياة يوماً بيوم[١١] تُوَفِّر لنا طاقةً كثيراً كُنّا ما نُنفقها في حمل هم الغد. أيضاً ممارسة الاستمتاع بما لا يزال لدينا، وسط صعاب ومتاعب الحياة يساعدنا على حمل هذه المصاعب فلا نغرق فيها.

كتبت آيمي جونستون فلينك:

> سوف لن أنظر للخَلف. الله يعلم كل المجهودات التي راحت سُدى، والساعات الضائعة، والخطية، والنَدَم. سوف أترك كل هذا له، فهو الذي يمحو الآثام ويغفر وينسى. كما أنني لن أنظر للأمام. الله يرى المستقبل. طال طريق الحياة أو قَصُر، فهو سيأخذني لموطني إن آجلاً أم عاجلاً. سوف يواجه الرب معي كل تجربة رُبما تأتي، ويحمل معي كل حمل سوف يُلقى عليّ. سوف أنظر إلى وجه يسوع، لأن هناك يستطيع قلبي أن يستريح، ومخاوفي أن تهدأ، وهناك فقط تأتي السكينة لألمي، والمَحَبة لوحدتي والراحة لتعبي، والنور لظلمتي. وهناك يملأني الفرح والسلام التام[١٢].

---

١١ إنجيل متى ٦: ٣٤. وإنجيل لوقا ١١: ٣

12 Terry Webb, Three of Renewed Life, Spiritual Renewal of the Church through the Twelve-Step Program (Crossword: N.Y., 1992) p. 104

قبول الصعاب والاجتياز فيها

تقول الفقرة التالية: *ساعدني أن أقبل الصعاب وأجتاز فيها لكي أصل إلى السلام*. الصعاب التي تأتي علينا هي من الأمور التي لا نستطيع أن نُغيرها، فينبغي أن نقبلها. وقبولها ليس الاستسلام لها وإنما الاجتياز فيها. والاجتياز فيها هو ألا نسأل أنفسنا «لماذا؟» قد حَدَثَ ما حَدَث، وإنما «ماذا؟» نفعل الآن بعدما حَدَث ما قد حَدَث. المحبة تحتمل كل شيء وتصبر على كل شيء وترجو كل شيء لأنها تؤمن أن هناك سلاماً بعد الصعوبات وهذا السلام مؤسسٌ في صانع السلام ولا يحصل عليه إلا من يقبلون الصعاب ويجتازون فيها ولا يقفون على بابها يندبون حظوظهم.

أَتَصَوّر أن صلاة السكينة مقسومة إلى قسمين:

- القسم الأول يتناول *الدخول داخل النفس* والتعامل مع ما بها من أفكار ومشاعر وذلك لتحقيق سكينة قبول ما لا يُمكن تغييره، وقبول الصعاب والاجتياز فيها، وأيضاً شجاعة التغيير والحياة يوماً بيوم والاستمتاع بما لايزال فيها من أمور جيدة.

- أما القسم الثاني فيتناول *الخروج خارج النفس*. إلى العالم والناس والله. وهذا ما سنتأمله فيما يلي:

قبول العالم والناس

تقول الفقرة الأولى مما نعتبره (الجزء الثاني) *ساعدني أن أقبل العالم والناس كما هم وليس كما أريدهم أن يكونوا*. ولكي نقبل العالم كما هو، والناس

كما هم، نحتاج لأن نفتح عدسة رؤيتنا ونرى أوسع مما نستطيع أن نراه ونحن منحصرون في أنفسنا. مما يزيد من ألم المتألم أن يكون منحصراً في نفسه. لكن احتمال متاعب الحياة يزداد تدريجياً عندما ندرك أن الكون لا يدور حولنا وما نحن إلا جزءًا صغيراً منه. هذا ما فعله الله مع أيوب لكي يخرجه من نوحه. عندما تكلم الله لم يقدم إجابات ولكنه لخمسة إصحاحات متتالية (٣٨- ٤٢)، قدم له حلقة ممتعة من برنامج «عالم الحيوان» في صورة لقطات لغوية جميلة التقطها الله للخليقة وما بها من أجرام وكواكب وظواهر طبيعية وحيوانات جميلة مهيبة. وكانت كل هذه اللقطات تبدأ دائماً بسؤال استنكاري: «أتعرِف؟»... «هل انتهيت إلى؟»... «هل في أيامِك؟» .. «أمن فهمك؟» الخ. وبصورة عامة، عندما يدرب الإنسان نفسه على الخروج من نفسه ورؤية الصورة الأكبر للكون، واستيعاب حقيقة أن الألم وارد والخسارة ليست مفاجأة في هذه الحياة، فإنه يجعل نفسه أكثر قدرة على احتمال الآلام التي من الممكن أن تصيبه في يوم من الأيام.

أيضاً بالنسبة *للناس*. جزء كبير من عدم قدرتنا على احتمالهم، هو أننا نعاني من الصدمة عندما نكتشف أنهم ليسوا كما نريدهم دائماً أن يكونوا. عندما نخرج إليهم ونكتشفهم ونرى أبعاد شخصياتهم الأعمق، نستطيع عندئذ أن نقبلهم كما هم، تماماً كما نريدهم أن يقبلونا كما نحن.

الثقة بالله

تُختَتَم صلاة السكينة بعبارة: *واثقاً أنك صاحب السلطان وسوف تفعل كل شيء حسناً إن سلمت قلبي وحياتي لمشيئتك. آمين.* الثقة والتسليم هُما المكان الذي عندما نقف فيه، يُمكن لمحبة الله أن تنسكب في قلوبنا. المحبة

هي التي تحتمل كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. ولن نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا تَمَكَّنت منا المحبة وما يساعد المحبة أن تتمكّن منا هو أن نمارس الدخول إلى أنفسنا لكي نتعامل مع سيطرتنا ورغبتنا في تغيير ما لا يُمكن تغييره، وتكاسلنا عن تغيير ما يُمكننا تغييره، وحياتنا في الماضي والمستقبل أكثر من حياتنا في الحاضر. ثم الخروج خارج أنفسنا لنرى العالم كما هو، أوسع كثيراً من أن يدور حولنا، والناس أعقد كثيراً وأكثر حُرِّيةً من أن نستطيع أن نجعلهم كما نريدهم أن يكونوا، والله هو صاحب السلطان الحقيقي في هذه الحياة وعلينا فقط أن نُسلِم حياتنا لسلطانه ومشيئاتنا لمشيئته.

وختاماً لهذا الفصل أقتبس فقرة من كلمات «النبي»[١٣] عن المحبة:

كل هذا تصنعه المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم،

فتصبحوا بهذا الإدراك جزءًا من قلب الحياة.

غير أنكم إذا خِفتم، وقَصَرتُم سَعيَكُم على الطمأنينة واللذة في المحبة،

فالأجدر بكم أن تستروا عُريَكُم وتخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد.

١٣ جبران خليل جبران. النبي ص. ٢٤

الفصل الثالث

البحث عن الحقيقة

المحبة لا تَظُنّ السوء

و تُصدِّق كل شيء

المحبة لا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق

وفي نهاية حياته كان يشعر بالامتنان أنه اختار أن يصدق على أن يَكرَه.

تحكي القصة الفولكولورية اليهودية[1] عن «جِمبِل»[2] وهو خباز بسيط يعيش في قرية صغيرة اسمها «فرامبول» حيث يعتبره أهلها عبيط القرية، وكان أغلب سكان القرية يتخذونه موضوعاً لنكاتهم وسخريتهم. تُروى القصة على لسان «جِمبِل» باعتباره الراوي. فيقول أنه لا يعتبر نفسه غبياً مع أن الجميع يصفونه بذلك لأنه يُصدِّق كل شيء. وهو يعرف أن الناس يستغلونه وأنه ليس مُقاتلاً في سبيل حقوقه. كان «جِمبِل» يتيماً رَبّاه جده المُسن الذي أعطاه لأحد الخبازين ليتعلم منه المهنة. ولكونها مهنة في الشارع تتعامل مع الجمهور،كان الكثيرون يسخرون منه. ذات مرة قال له أحدهم أن أباه وأمه قاما من الموت

---

١ يهود اليديش الذين كانوا يعيشون في أوربا الشرقية (بولندا) في بداية القرن العشرين

2 Gimple the Fool

وهما يبحثان عنه. كان «جِمبِل» يعرف أن هذا ليس حقيقياً، لكنه بالرغم من ذلك ذهب ليبحث عنهما لكي يتأكد. وبعد الضجة والسخرية التي حدثت، أخذ «جِمبِل» عهداً على نفسه ألا يصدق أي شيء فيما بعد، إلا أنه لم يستمر كثيراً في الوفاء بهذا العهد. وبسبب حيرته ذهب إلى المعلم اليهودي ليسأله فقال له المُعلم: «مكتوب أنه من الأفضل أن تكون غبياً طوال عمرك، على أن تعيش ساعة واحدة شريراً. لست أحمقاً يا جِمبِل بل هم الحمقى، فمن يتسبب في أن يجعل قريبه يشعر بالخزي هو الذي يخسر الفردوس».

وإمعاناً في خداع جمبل، زَوَّجَهُ أهل القرية بعاهرة القرية «إلكا». وذات ليلة وهو عائد من عمله في المخبز يجدها في الفراش مع رجل غريب، فتوهمه أنه ما رأه خيالاً وليس حقيقة، وهو يختار أن يصدق وتستمر حياتهما الزوجية عشرون عاماً خلالها أنجبت له ستة أطفال. ثم وهي على فراش الموت اعترفت له أن واحداً فقط من هؤلاء الأطفال هو ابنه. إثر ذلك اكتئب «جِمبِل» وترك القرية وطاف في طول البلاد وعرضها يحكي قصصاً للأطفال. وفي نهاية حياته كان يشعر بالامتنان أنه اختار أن يصدق على أن يَكرَه.

بالطبع ليس المقصود بالقصة أن يكون الإنسان ساذجاً ويُصدِّق كل شيء. لكن إن كان الخيار بين التصديق أو التكذيب، أو بين الثقة أو الشك، فاختيار الثقة، حتى التأكُّد من الحقيقة، هو الاختيار البار مثلما قال المُعلم لجِمبِل: «من الأفضل أن تكون غبياً طوال عمرك، على أن تعيش ساعة واحدة شريراً». نفس هذا المبدأ مُطَبَّقٌ في القضاء، فالمُتّهم يظل بريئاً مهما حامت حوله الكثير من الشكوك وذلك حتى تثبت إدانته. ومن شعارات القضاء أنه «من الأفضل إطلاق مائة جاني حُرّاً على سجن بريء واحد» لذلك فإن «الشك

يُفَسّر دائماً لصالح المُتَّهم». صحيحٌ أن الكثير من الجُناة ومحاميهم يستغلون هذا المبدأ في القضاء ليخرجوا مُوَكِّليهم الجُناة من الكثير من القضايا (لعدم كفاية الأدلة)، لكن يظل هذا المبدأ قائماً، ويظل القضاة ورجال القانون يفتخرون بأنهم لم يسجنوا بريئاً أو يعدموا مظلوماً.

المحبة لا تظن السوء، وتُصَدِّق كل شيء

المحبة غير المشروطة (آجابي) تُخاطِر ولا تحمي نفسها، وهي تحسب هذه المُخاطرة مُستَحِقَّة.

المحبة (آجابي) هي تَوَجّه روحيّ يفترض الخير ويرجوه ويتوقَّعه ويعمل من أجله. هذا أمرٌ أصيل في المحبة غير المشروطة، وهو أمرٌ يَتَحدّانا ويقلقنا حيث أن خوفنا من الخديعة يجعلنا لا نميل لأن نخاطر بفرض حسن النية، بل نفترض سوء النية لكي نحمي أنفسنا أما المحبة فتخاطر ولا تحمي نفسها، وهي تحسب هذه المخاطرة مُستَحِقَّة. المحبة غير المشروطة هي دواء البشرية - دواء الخطاة والكذبة والمنافقين، ودواء الخائفين وغير الواثقين من أنفسهم ومن الآخرين. المحبة غير المشروطة لا تُحب فقط البريئين والصادقين، بل تحب الجميع بلا شروط، وترى أن في أعماق كل إنسان خيراً لم يجد الفُرصة بعد لكي يخرج، وإذا صادف الإنسان محبةً غير مشروطةٍ تفترض فيه الخير وليس الشر، فإن هذا يُمكن أن يتيح للإنسان فرصة لتحرير الخير من داخله.

ذات الإنسان الحقيقية مخلوقة على صورة الله تبحث عن الخير والحق والجمال وعن الله، ومن صفاتها أنها قادرة على الثقة بسبب الحب والقبول والانفتاح على الضعف والقوة، تستطيع الذات الحقيقية أن تثق بنفسها

وبالآخرين، دون سذاجة أو عنف. وهي أيضاً حنونة ورحيمة، تقبل الآخرين بسهولة. ينبع قبول الآخرين من قبول النفس. فمن يتقَبَّل نفسه كما هي ولا يشعر بالدونية أمام الآخرين، يستطيع أن يتقَبَّلَهم ولا يتهدد بقوتهم أو مهارتهم لأنه لا يشعر أنه يعيش حالة من التنافس. هذا لأن المحبة الكاملة تَسَع الجميع.[٣]

هذه صفات ذواتنا الحقيقية المخلوقة على صورة الله، لكن «السقوط» هو أن هذه الذات الحقيقية الباحثة عن المحبة وعن المسيح، قد غلَّفتها ذاتٌ مزيفة تبحث عن القوة والسيطرة. هذه الذات المزيفة لا تثق بسهولة. غياب المحبة يجعل الشك وعدم الثقة هُما الأصل. ولأننا نخاف ولا نثق، فنحن نكذب، ولأننا نكذب، فإننا نعتقد أن الآخرين أيضاً يكذبون، وبالتالي نخاف ولا نثق ونظل في هذه الدائرة المفرغة من الخوف والشك.

صوت المحبة

تظل ذواتنا الحقيقية مثل جنين بذرة تخنقه قشرة جافّة ميتة تمنع نموَّه وخروجه للحياة. المحبة (آجابي) هي بمثابة الماء العذب الذي يُمكِن أن يُلَيِّن هذه القشرة فيسمح لطبيعة الإنسان الحقيقية بالظهور. صوت المحبة الكاملة التي تطرح الخوف(المؤدي للكذب) إلى الخارج.[٤] هو صوت الله[٥] في المسيح،

> المسيح الكوني هو وحده الطريق إلى الله، وهو الذي يشهد عنه روح الله في قلوب من يريدون المحبة ويبحثون عن الحق، مهما كانت أديانهم وخلفياتهم.

٣ أوسم وصفي، ماهر صموئيل *معرفة الله والنفس* (عمان: أوفير ٢٠١٣) ص.
٤ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ١٨
٥ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٨

الذي يُحرر القلوب ويخرجها من موتها.[٦] هذا ما فعله يسوع مع الكثيرين، زناةً وفريسيين، عشّارين وغيورين، يهوداً وأمُماً، رجالاً ونساءَا، أغنياءَ وفقراء، مؤمنين به وكارهين له ــ الجميع.[٧]

وهو لا يزال يفعل ذلك مع الجميع. هذا هو المسيح *الكوني*[٨] الذي يعمل في قلوب الجميع، والمكتوب عنه أنه الموجود مُنذ الأزل قبل أن يصير بيننا في يسوع وهو «الكائن قبل إبراهيم»[٩]، وهو الذي «ينير كل إنسان».[١٠] المسيح بهذا المفهوم هو وحده الطريق إلى الله، وهو الذي يعمل روح الله للشهادة عنه في قلوب كل من يريدون المحبة ويبحثون عن الحق، مهما كانت أديانهم وخلفياتهم، فُربما يولدون من الله في *قلوبهم* وهم لا يدرون *بعقولهم* أنهم مسيحيون،[١١] كل الذي يعرفونه هو أنّهم يُحِبّون بلا شروط.

يؤمن المسيحيون أن المسيح *التاريخي*، أي يسوع المسيح الناصريّ الذي وُلِدَ من عذراء وعاش وعَلَّم وصنع المعجزات وتألم وصُلِبَ على عهد بيلاطس البنطي، وقُبِر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما تَمَّ التنبؤ به في كُتُب العهد القديم، هو نفسه المسيح ابن الله. وهذا الإيمان هو الذي يُدخِل الإنسان إلى ملكوت الله هُنا والآن وإلى الأبد[١٢]. هذا هو «الباب» المؤدي

---

٦ إنجيل يوحنا ٥: ٢٥

٧ أوسم وصفي و ماهر صموئيل معرفة الله والنفس. (عمان: أوفير ٢٠١٣). الجزء الثالث. ص. ١٣١ – ١٧١

8 "The Cosmic Christ" in Dallas Willard, Knowing Christ Today (San Francisco: Harper Collins E-book, 2009) locations 2735 and 2741

٩ إنجيل يوحنا ٨: ٥٨

١٠ إنجيل يوحنا ١: ٩، ١٠

١١ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٧

١٢ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٥: ١

للطريق، فالمسيح التاريخي هو«الباب» الوحيد للمسيح الكوني. ولكن الله في رحمته فَتَح «نوافذ» منها يطل البعض على هذا الطريق والبعض يقفزون من هذه النوافذ ويصِلون بصورةٍ أو بأخرى، بوعيٍ منهم أو بدون وعي، إلى الطريق وهذا يظهر من خلال سِمة الطريق البادية بوضوح وبإصرار على نوعية حياتهم، وهي المحبة (أجابي). لم يكن غاندي مسيحياً بالمعنى الديني لكنه يقول على سبيل المثال: «إن تضحية البريء الاختيارية هي الجواب الأقوى في وجه الطُغيان الوقح الذي لا يزال يحتمله كل من الله والإنسان».[١٣] وما هذه العبارة إلاّ الإنجيل نفسه؟! أيضاً لا أدري إن كان طبيب القلب العالمي مجدي يعقوب قد «صَلّى صلاة تسليم القلب للمسيح» أم لا، لكنني أعرف شيئاً واحداً، وهو أن آلاف الأطفال الفقراء كانوا على شفا الموت وبسببه هم الآن يلعبون ويمرحون في صحة وسعادة[١٤].

هؤلاء الذين يقول عنهم بولس الرسول في الأصحاح الثاني من رسالته إلى أهل رومية أنهم «بصبرٍ في العمل الصالح (أي العمل الصالح تحت ضغط والذي يكشِف حقيقة تغيير الطبيعة) يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية.... ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح: اليهودي أولاً ثم اليوناني لأن ليس عند الله مُحاباة»[١٥] و يقول أيضاً عنهم أنهم: «الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم، شاهداً أيضاً ضميرُهُم وأفكارهم فيما بينهم مشتكيةً أو محتجة»[١٦]وما هو عَمل الناموس إلا المحبة

---

١٣ فيليب يانسي . ما أعجب النعمة (بيروت: دار منهل الحياة، ٢٠٠٩) ص. ١٧٦

١٤ الجيل يوحنا ٩ : ٢٥

١٥ الرسالة إلى أهل رومية ٢: ١، ٧

١٦ الرسالة إلى أهل رومية ٢: ١٥

(آجابي)[١٧]؟ وبالطبع الذين يدخلون إلى الطريق من نوافذ المحبة والإنسانية والناموس المكتوب في القلب بالرغم من عدم إيمانهم بيسوع، أقل كثيراً من الذين يجدون الباب ويدخلون منه بالإيمان بيسوع، لكن ليس لنا أن نحكم مَن هو الذي دخل ومن الذي لم يدخل.

مؤخراً سُئِلَ المُبشر الشهير بيللي جراهام إذا كان يؤمن أن السماء سوف تكون مغلقة أمام الأتقياء من اليهود أو المسلمين أو البوذيين أو الهندوس أو العلمانيين، رد بحكمة شديدة قائلاً: «إن هذه قرارات لا يتخذها إلا الربّ نفسه. وإنه لمن الحماقة بالنسبة لي أن أقول أو أُخَمِّن من سيكون في السماء ومن سوف لا يكون...أنا لا أريد أن أقدم أي افتراضات هنا، لكنني فقط أؤمن أن محبة الله مُطلقة. لقد قال أنه قد قدَّم ابنه لكل العالم، وأنا أعتقد أنه يُحِبُّ كل إنسان مهما كان العنوان الموضوع عليه».[١٨]

هل يعني هذا عدم أهمية مخاطبة العقل؟ وعدم أهمية الكلام عن الباب والطريق، والإشارة إليه بوضوح أمام كل البشر؟ على الإطلاق. وذلك لأن الذين يصِلون للطريق بقلوبهم وفطرتهم بالرغم من عقولهم المليئة بمعتقدات موروثة، هم قِلّة نادرة،[١٩] كما أن دين العقل والثقافة والموروث كثيراً ما يخنق «دين القلب». علينا إذاً أن نُخاطب العقل سواء اقتنع أم لم يقتنع. وبعد ذلك،

---

١٧ الرسالة إلى أهل رومية ١٣: ٨- ١٠ ورسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ١: ٥

١٨ مجلة نيوزويك عدد ١٤ أغسطس. سنة ٢٠٠٦

١٩صادف يسوع مثل هؤلاء أثناء خدمته. مثل الناموسيّ الذي قال له أنه ليس بعيداً عن ملكوت السموات. وقائد المئة والمرأة الفينيقية الذين قال أنه لم يجد في كل إسرائيل إيماناً مثل إيمانهما. وأيضاً هناك قصة كرنيليوس في الأصحاح العاشر من سفر الأعمال والذي قال عنه بطرس: " بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه (مثلما قال بولس في رسالة رومية أن ليس عند الله محاباة) بل في كل أمّة. الذي يتّقيه ويصنع البرّ مقبول عنده." وأشار إلى المسيح في هذا السياق قائلاً أنه "رب الكل".

وقبل ذلك، علينا دائماً أن نخاطب قلوب كل البشر، ونحاول أن نشفيها بالمحبة، فكُلَّما شُفِيَ القلب كلما يعود إلى فطرته، أي ذاته الحقيقية المخلوقة على صورة الله، والمفطورة على المحبة، والباحثة دون أن تدري، عن صورة الله في المسيح، بحثَ جنين البذرة عن الرطوبة لكي تحيا وتنمو، حتى وإن لم تَعِ وتُدرِك أنها تحيا وتنمو.

الدخول والخروج

المحبة **تختار** أن تُصَدَّق إلى أن يثبت العكس. لأن المحبة تُفضّل أن تُخدَع على أن تتهم أحداً باطلاً، ولأنها تفترض أن الأصل في الإنسان هو الصِدق.

كيف يتعامل إذاً الإنسان الذي تنمو داخله شجرة المحبة، مع كلام يشكُ عقلُهُ فيه؟ هنا تظهر حقيقة أن المحبة الروحية غير المشروطة (آجابي) هي قرار إرادي باختيار التصديق. ليس هذا ضرباً من السذاجة أو إلغاءًا للعقل، فمن المفترض أن يظل الإنسان طالباً للحق والحقيقة، لكن المحبة هنا **تختار** أن تُصَدَّق إلى أن يثبت العكس أتصور أن هناك سببان: الأول هو أن المحبة تُفضّل أن تُخدَع على أن تتهم أحداً باطلاً، والثاني لأن المحبة تفترض أن الأصل في الإنسان هو الصِدق وليس الكذب.[٢٠]

دائماً الطريق للمحبة هو الخروج خارج الانحصار في النفس. قبل القرار الإرادي الصَعب باختيار المحبة التي تصبر وتحتمل ولا تظن السوء وتصدق

---

٢٠ يعتمد "جهاز كشف الكذب" على التقاط وقياس التغييرات الفسيولوجية التي تحدث في جسد الإنسان (رسم القلب ورسم المخ والعضلات ودرجة حرارة الجلد) عندما يكذب. فالكذب عبء ومجهود نفسي يقع على من يكذب حيث أن الإنسان مخلوق للصدق وجسده يتعامل براحة واسترخاء وانسجام عندما يقول الصدق.

كل شيء وتحتمل كل شيء وترجو كل شيء، ينبغي أن :

- *ندخل إلى أنفسنا* ونسأل أنفسنا ما هو مصدر الشَكّ وهدفه؟ الشك هو خوف من الخديعة. وهذا الخوف إما أن يكون خوف من نتائج الخديعة (أي الخُسارة)، أو من الخديعة نفسها وما تحمله معها من عجز ورُبما إهانة. كما ينبغي أن نسأل أنفسنا أيضاً «إن كان هذا الشَكّ له ما يُبَرِّره. هل هناك أدِلّة أم هو مجرد شك رُبما يزيد منه الخوف من الخداع؟ أيضاً نتساءل: ما الذي يُمكن أن يحدث؟ وما هي أبعاد المخاطرة التي نأخذها بالتصديق؟ وهل نحن مستعدون لخوض هذه المخاطرة من أجل الشخص الآخر؟

- ثم بعد ذلك *نخرج خارج أنفسنا* لنُذكِّر أنفسنا بالعدل والحق، وهو أن المُتَّهم بريء حتى تثبت إدانته. وأن الشَكّ يجب أن يُفَسَّر لصالح المُتَّهم (The benefit of the doubt) وكون الإنسان يُعتبرُ مُتَّهَماً، فذلك بسبب الشكوك التي في أذهاننا والتي لم تَرقَ بعد إلى مستوى الأدِلَّة.

- *ونخرج خارج أنفسنا* أيضاً لندخل إلى عالم الشخص الآخر لنحاول أن نرى ما يُمكن أن يحدث في ذلك الإنسان من أمان يؤدي للتغيير إذا مَكَّنّا له المحبة، وما يُمكن أن يحدث من خوف ورُبما شعورٍ بالإهانة والحُزن إذا عاملناه بناءاً على ظنوننا وشكوكنا.

المحبة لا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق

بولس الرسول، الذي يقول أن المحبة لا تظن السوء وتصدِّق كل شيء، لم

يكن أبداً ممن يتنازلون في الحَق، بل كان يواجه بكل حزم كل ابتعاد عن الحق والحقيقة. ومن يريد أن يحصل على أدلة وأمثلة لذلك من رسائله سوف يجد الكثير.

لقد كان بولس ممن يفرحون بالحق وينادون به بكل جسارة. لكون المحبة تُوَجّه دائم نحو الحق والخير والجمال والصالح الروحي للنفس والآخرين، فإن الإنسان الذي قد نَمَت داخل قلبه «شجرة المحبة» لا يعود يَتَلَذَّذ بما ليس حَقّاً والذي صار يعتبره الآن «إثماً»[٢١] ولا بأي شيء يؤثر سلباً على الصالح الروحي له وللآخرين.

أوصى بولس المؤمنين في رسالته لأهل أفسس (وهي من الرسائل الرعوية العامة) ألا يخطئوا في غضبهم، وألا تخرج كلمة ردية من أفواههم و أن يُرَفع من بينهم كل مرارة وسَخط وغضب وصياح وتجديف، وأن يكونوا لطفاء شفوقين،[٢٢] لكن في نفس الوقت لا يمنعهم هذا من قول الصدق في المحبة[٢٣] وإن كان الصدق مؤلماً أحياناً. وقد كان بولس نفسه ممن يقولون الصدق في المحبة للأفراد أو للكنائس. ومن الكنائس التي خاض بولس الرسول معها أشواطاً طويلة في قول الصدق في المحبة، هي نفس الكنيسة التي يوجه إليها رسالة المحبة التي نتأملها في هذا الكتاب ـــــ كنيسة كورنثوس.

---

٢١ هذا بالطبع لا يحدث بين ليلةٍ وضُحاها لكن كلما نما الإنسان روحياً كلما تناقصت لذته بالإثم والكذب تدريجياً.

٢٢ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٤: ٢٦- ٣٢

٢٣ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٤: ١٥

وُلدت كنيسة كورنثوس في المدينة التي تحمل نفس الاسم وهي مدينة من المدن الرئيسية في اليونان في ذلك الوقت وكانت العاصمة التجارية المزدهرة. كانت تسود على هذه المدينة عبادة الإلهة أفروديت وهي إلهة الجنس عند اليونانيين وكانت كاهنات أفروديت (يصل عددهن إلى ألف كاهنة[٢٤]) يمارسن «الجِنس المقدس» مع الرجال العابدين داخل هيكل هذه الإلهة المبني على تَبَّة عالية في المدينة.

لهذا السبب كان الانحلال الجنسي سائداً في هذه المدينة وكانت من شعاراتهم «الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة والله سيبيد هذه وتلك، والجسد للزنى والزنى للجسد والله سيبيد هذا وتلك». لذلك نجد أن بولس كان يواجه بكل حزم ذلك الإنحلال الجنسي الذى يهاجم الكنيسة. وقد كان هذا في واقعة شهيرة جاء ذكرها في رسائل بولس الرسول لهذه الكنيسة عندما كان هناك شخص من الإخوة المؤمنين داخل الكنيسة على علاقة جنسية آثمة مع زوجة أبيه. كان بولس يحث الكنيسة على المواجهة والحزم مع هذا الإنسان، وفي نفس الوقت تمكين المحبة له عندما يعترف ويتوب.[٢٥] وفي فقرة شهيرة وعميقة في الأصحاح السادس من رسالته الأولى لهذه الكنيسة كان يتكلم عن علاقة الجنس بالجسد وقدم عبارة تناقض الشعار الذي كان سائداً هناك في ذلك الوقت وهي: «الجسد ليس للزنى بل للرب والله سيقيم أجسادنا بقوته»[٢٦] هذه هي المحبة الحقيقية فالمحبة الحقيقية لا تبحث عن «متعة» النفس والآخر، بقدر ما تبحث عن الحق، الذي هو الصالح الروحي الأسمى للنفس وللآخرين.

---

٢٤ الكتاب المقدس الدراسي (القاهرة: ماستر ميديا، ٢٠١١) ص. ٢٧٤٤

٢٥ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٥: ١- ٥ و الرسالة الثانية ٢: ٦-٨

٢٦ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٦: ١٢- ٢٠

في هذا الجزء تناولنا المحبة وشوائبها مثل الإنحصار في النفس الذي يؤدي

للخوف وعدم الأمان، وعدم الصبر والرغبة في تغيير الآخرين، أو الشك والظن السيء. في الجزء التالي من الكتاب سوف نتناول المحبة وأشباهها، أو بدائلها التي نحاول بها أن نستبدل المحبة (آجابي)، وذلك لأننا لم نستطع ولم نرغب في أن ندفع « مَهر» المحبة ولم نرد أن نستسلم لها.

و بمناسبة الكلام عن « مَهر» المحبة أو تكلفتها، يُمكننا أن نستعيد مرة أخرى كلمات «النبي» في ختام حديثه عن المحبة:

ولكن إذا أحببت، وكان لابد من أن تكون لك رَغَباتٌ خاصة بك، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوبَ وتكون كجدولٍ مُتَدَفِّقٍ يُشَنِّف آذان الليل بأنغامه.

أن تختبر الآلام التي في العطف المتناهي.

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في قلبك:

وأن تنزف دماؤك وأنت راضٍ مغبوط.

أن تنهض عند الفجر بقلبٍ مُجَنَّح خفوق، فتؤدي واجب الشُكرِ مُلتمِساً يوم محبةٍ آخر.

أن تستريح عند الظهيرة وتُناجي نفسك بوَجد المحبة،

أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً، فتنام حينئذ

والصلاة لأجل من أحببت تتردد في قلبك،

وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.

«المحبة هي القوة المُحَرِّكة للحياة التي تدفع كل ما هو كائن نحو كل كائنٍ آخر»

بول تيليك

اللاهوتى الألمانى

إن كُنتُ أتكلم بلغات البشر والملائكة ولم يكن لدي محبة

أكون مثل جرس مزعج أو صنجٍ مُنَفِّر

وإن كانت لي موهبة النبوَّة وكنت أعرف كل الأسرار وكل معرفة

وكان لي الإيمان الكافي لأُحَرِّك الجبال، ولم يكن لديَّ محبة

فأنا لا شيء.

وإن كُنتُ أتَصَدَّق بكل ما أملك لإطعام المحتاجين،

وإن ضَحَيتّ بجسدي حتى يحترق، ولم يكن لدي محبة

فلا أستفيد من ذلك شيئاً.

الأصحاح الثالث عشر من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١ - ٣

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الثاني

المحبة وبدائلها

المحبة غير المشروطة (آجابي) مُكَلِّفة، فهي إختيار روحي إرادي بالخروج خارج النفس، وهذا ضد الميل الفاسد والمتغلغل فينا للانحصار في أنفسنا. أن نتخلى عن عادتنا البشرية الراسخة في أن نحقق أماننا بالامتلاك والإنجاز والتفوق، فهذا بمثابة موتٌ عن طريقتنا القديمة في الحياة. وأن نختار أن نتأنّى ونرفق ولا ننتقم أو نهاجم أو نَحتَدّ، فهذا موتٌ عن ذواتنا التي لا تعرف سكينة الاعتراف بعدم القدرة على تغيير الآخرين ، بل ألِفَت النَزَق والتَوتّر.

أن نختار أن نصبر ونحتمل ونرجو، فهذا موتٌ عن ذواتنا التي اعتادت السيطرة والتَحَكُّم. وأن نختار أن نثق ونُصدِّق ولا نظن السوء، فهو موتُ عن ذواتنا التي اعتادت أن تحمي نفسها من خلال الشَك وافتراض سوء النية مُسَبَّقاً. وعندما نختار ألا نفرح بالإثم وإن كان مُلذّا ونفرح بالحق وإن كان مؤلماً، فهو موتُ عن ذواتنا التي مُنذ قديم الأزل اتَّخَذت من «قاعدة اللذة» مقياساً لما هو مقبول وما هو مرفوض بالنسبة لها.

ولأن المحبة غير المشروطة هذه قرار يومي بالموت عن الأسلوب المعتاد في الحياة، فإننا نحاول دائماً أن نراوغها ونجد لأنفسنا بدائلَ لها كالمعادن لامعة المظهر رخيصة الثمن التي نستبدلها بذهب المحبة الباهظ الثمن. هذه المعادن رُبما تكون القوة الفائقة بأشكالها المُبهرة، والعِلم بجاذبيته الشديدة، أو الدين بأعماله العظيمة.

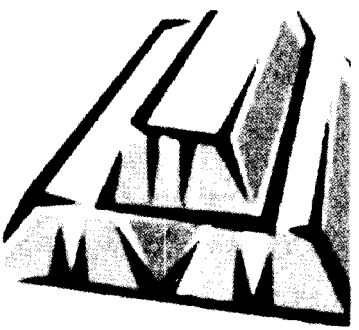

الفصل الرابع

العِلم والمعرفة

إن كان لي كل العلم وليست لي محبة فلست شيئاً

العِلم يبني العقل ومن يُحب إنساناً يتمنى له أن ينمو في العلم[1]، أما المحبة فتبني شخصية الإنسان ككُلّ وتبني الأسرة والمجتمع. العلم بدون محبة يؤدي للكبرياء والانتفاخ،[2] فالعِلم يُزيد من ثقة الإنسان بنفسه و يجلب الإعجاب والانبهار به ممن حَوله وإذا حدث ذلك بدون محبة وعلاقات عميقة من المشاركة والانفتاح والاعتراف ومواجهة الضعفات،[3] فإن الإنسان يظن نفسه قد أَدْرَكَ أو صار كاملاً.[4]

العلم والمواهب يصنعان «نجوماً»، أما المحبة فتصنع «حجارة حَيَّة» تبني الأسرة والمجتمع والكنيسة.

هكذا فإن العِلم والمواهب يصنعان «نجوماً» في المجتمع ورُبما في الكنيسة. النجوم لا يستطيعون الاقتراب من بعضهم البعض لبناء الجسد، بل يميلون للابتعاد عن غيرهم من النجوم وجمع حولهم أكبر عدد من «الكواكب». أما

---

١ رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ٨: ٧

٢ رسالة بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس ٨: ١

٣ رسالة بولس الرسول الثانية لأهل كورنثوس ١٢: ٩

٤ رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي ٣: ١٢، ١٣

المحبة فلا تصنع نجوماً وإنما «حجارة حَيَّة»[٥] تستطيع أن تقترب وتحتَكّ ببعضها البعض وتصقل بعضها البعض لتصير بناءاً مُركَّباً معاً[٦] يؤازر بعضه بعضاً بمفاصل، مثل أجزاء الجسد الواحد. عندما تكون هذه هي الحالة، فإنه عندما ينمو كل عضو في العلم فإن هذا يسري في الجسد كله تَعليماً وتَعَلُّماً لكي يصنع «مُحَصِّلة»[٧] لنمو الجسد كله وبنيانه في العلم والعمل، والأهم من ذلك، نموُّه في المحبة.

أُنظُر حولك

يحمل الوَلع بالعلم والمعرفة، خطر الانحصار في عالم شخصي صغير مُكَوَّنٌ من الكُتُب والمقالات والمحاضرات والدراسات وقاعات العلم. والأخطر من ذلك أن يعيش الإنسان «داخل عقله» فيتحول إلى تلك الصورة التقليدية للعالم أو المُفكر الذي يسير في الشوارع شاردَ الذهنِ لا يكاد لا يرى الناس من حوله، أو يراهم مثل «أشجارٍ يمشون»، وتدريجياً يبدأ يشعر بأنه وما بداخله من أفكار، أهمّ من باقي الناس الذي لا يشاركونه أفكاره العالية بل يُفكّرون في أمور أبسط، مُختصةٌ عادةً بعملهم الروتيني واهتماتهم البسيطة وخبزهم اليومي. عندما أجد نفسي مُجَرّباً بالتفكير بهذه الطريقة، أنتهر نفسي قائلاً: «تُراك كنت ستفعل غيرهم لو كنت مكانهم؟!»

عندما اختار يسوعُ تلاميذه لم يخرج بهم للصحراء مُحمّلين بكتب تفسير التوراة والعهد القديم، وراح يقودهم في حلقات دراسية ونقاشات لاهوتية. وقد كان هناك من يفعلون ذلك في زمانه مثل «الآسينين»، و«جماعات قُمران».

٥ رسالة بطرس الرسول الأولى ٢: ٥
٦ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٢: ٢١
٧ أفسس ٤: ١٦

ليس هذا سيئاً، بل جيداً جداً، لكنه يحمل خطورة الكبرياء العلمي والروحي. على العكس من ذلك، أخذ يسوع تلاميذه للحقول والمروج وكان يُعَلّمهم ليس في المجامع وبين المخطوطات، بل بين زنابق الحقل وطيور السماء ويمزج تعليمه بصور بيئية حميمة. فهاهو الزارع قد خرج ليزرع،[٨] والقمح والزوان،[٩] والبناء الحكيم والبناء الجاهل.[١٠] وليس الفلاحين وعُمّال البناء فقط مَن أشار إليهم يسوع، فبالطبع لم ينس الصيادين، وقد كان أغلب تلاميذه منهم، فذكر الشباك والسمك[١١]، ولم ينس رَبّات البيوت أمام أواني العجين والخمير[١٢]، والنساء الجالسات أمام الرَحَى يطحنّ الحنطة.[١٣]

وكان يسوع عندما يأخذ تلاميذه ويسافرون للبلاد المختلفة، أو يذهبون حتى إلى المجمع، كان دائماً ما يلفت انتباههم لما لم يعتادوا أن يروه. ولعل من عباراته الشهيرة التي وجهها لتلاميذه: «انظروا».

- انظروا إلى طيور السماء[١٤]
- انظروا إلى شجرة التين[١٥]
- انظروا لا تحتقروا هؤلاء الصغار[١٦]
- أتنظر هذه المرأة؟[١٧]

٨ إنجيل متى ١٣: ٣
٩ إنجيل متى ١٣: ٢٤
١٠ إنجيل متى ٧: ٢٤
١١ متى ١٣: ٤٧
١٢ متى ١٣: ٣٣
١٣ متى ٢٤: ٤١
١٤ متى ٦: ٢٦
١٥ لوقا ٢١: ٢٩
١٦ متى ١٨: ١٠
١٧ لوقا ٧: ٢٤

- ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول[١٨]

المحبة تدفعنا لأن نرفع أعيننا من على أنفسنا وأفكارنا التي ربما نقع في غرامها على حساب رؤية الحياة والحقيقة والناس.

لست شيئاً

العِلم، مثل المال والقوة والنفوذ، أمورٌ ربما تغرينا بأن نحسب أنفسنا أفضل من الآخرين. لذلك فإن العلم، مثل الفن والسياسة والرياضة وغيرها من الممارسات التي رُبما تنطوي على الاعتقاد بالأفضلية ومشاعر التنافس والتحزب والصراع، أمورٌ يجب تناولها بحذر شديد لأنها رُبما تبدو مثل المحبة (محبة الفريق، ومحبة الحزب، ومحبة الوطن، ومحبة العلم، ومحبة الجمال) إلا أنها يُمكن بسهولة شديدة أن تزرع فينا فيروساً مضاداً تماماً للمحبة (آجابي) التي جوهرها تقديم الآخرين على أنفسنا.[١٩]

لا يستطيع أحد أن يُنكر محبة بولس للعلم و احترامه وحُبَّه للمعرفة وللكُتب[٢٠] واحترامه أيضاً لمن يقرأون ويبحثون ويفتشون الكُتُب.[٢١] لكنه في نفس الوقت لا يرضى بالعِلم بديلاً عن المحبة. لذلك يقول بولس الرسول في العدد الثاني من إصحاح المحبة(الذي هو موضوع هذا الكتاب): «إن كانت لي نبوة، وأعلم جميع الأسرار وكل عِلم، ولكن ليس محبة، فلست شيئاً».[٢٢]

---

١٨ يوحنا ٤: ٣٥

١٩ وهذه كما أشرنا سابقاً ليست حالة نفسية من كراهية للنفس. وإنما حالة عملية من الخروج خارج النفس للآخرين.

٢٠ رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس ٤: ١٣

٢١ أعمال الرسل ١٧: ١١

٢٢ الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١٣: ٢ (ترجمة فان دايك/ بستاني)

وفي أصحاح آخر من نفس الرسالة يكتب بولس الرسول أنَّ أول ما يُقرّ به العلم الحقيقي هو محدودية العلم ولا محدودية المحبة، وأن القلب أكثر اتساعاً من العقل بما لا يُقاس. لذلك يقول بولس الرسول: صحيحٌ قولكم «كُلنا نعرف!»،[٢٣] لكن المعرفة تنفخ الناس بالكبرياء، أما المحبة فتبنيهم. فإن ظن أحدهم أنه يعرف، فإنه لا يعرف كما ينبغي.

الجهل وليس الجاهل

المعرفة الحقيقية هي الاقرار بمحدودية المعرفة وبأن القلب أكثر اتساعاً من العقل

الولع بالعلم دون المحبة ربما يجعلنا تخلط بين الجهل والجاهل. من الطبيعي إن كنت ممن يحبون العلم والمعرفة أن تكره الجهل والغباء والكسل. لكن حذاري أن تكره أو تحتقر الجاهل والغبي والكسلان، فالكراهية والاحتقار هما قمة الجهل، وهو الجهل بقيمة الإنسان. وهما قمة الغباء، فالكراهية تهدِمُ الكاره أولً ما تهدم. وهي أيضاً قمة الكسل عن الخروج خارج النفس إلى الآخر لنراه وتُحبه (أو على الأقل تحتمله)، فالإنسان، أياً كان، ينبغي أن يكونَ موضوعاً للحُب والاحترام، فهو موضوعٌ لحب واحترام الله.

في العالم الروحي هناك أشياء ينبغي أن توجد معاً حتى يُصبح كلٌ منها ذو فائدة. فالناموس بدون حرية دين وتسلط،[٢٤] والمحبة بدون استقلال سيطرة،[٢٥] والاستقلال بدون محبة أنانية وإهمال للآخر.[٢٦] الإيمان بدون

٢٣ ربما كانوا يقولون: "كلنا نعرف أنه لا وثن في العالم!"
٢٤ رسالة يعقوب ١: ٢٥
٢٥ غلاطية ٥: ١، ١٣ أ
٢٦ غلاطية ٥: ١٣ ب

أعمال ميت،[٢٧] والأعمال بدون إيمان هي أيضاً أعمال ميتة لا تنفع شيئاً.[٢٨] كذلك أيضاً العلم بدون محبة يصير لا شيء والأسوأ أنه قد يُصيب الإنسان بجرثومة الكبرياء القاتلة.

حذاري أن تكره الجاهل والغبي والكسلان، فالكراهية هي قمة الجهل والغباء والكسل.

من الخطورة أيضاً أن العلم يُمكن أن يَتَنَكَّر في صورة المحبة وفي نفس الوقت يَتَنَكَّر لها. يمكن أن نستخدمه بديلاً عن المحبة فنُحب العلم من أجل الناس بدلاً من أن نُحب الناس أنفسهم. ونُحب تعليم الناس أكثر مما نحب الاقتراب إليهم وفَهْمَهُم ومشاركتهم مشاعرهم وحياتهم.

العلم إذاً هو من بدائل المحبة المُزيَّفة التي من المُمكن أن تشغَل قلوبنا وتحرمها من المحبة الحقيقية. في الفصل التالي سوف نتناول بديلاً مزيفاً آخر للمحبة، وهو القوة الفائقة والمواهب الروحية.

---

٢٧ يعقوب ٢: ١٧

٢٨ غلاطية ٣ . الرسالة إلى العبرانيين ٦: ١

الفصل الخامس

القوة والمظاهر الفائقة

الألسنة والقوات بدون محبة ليست شيئاً

لا أستطيع أن أنسى تلك القصة التي قَصَّها أحد الوعاظ الألمان[1] عن خبرته عندما كان مُرسلاً في إحدى بلدان أمريكا الجنوبية عندما زارهم في المدينة أحد المبشرين الكبار الذين يقومون بالنهضات التي يحضرها الآلاف وتحدث فيها الآيات والعجائب. وكان هذا المرسل الألماني يقود اجتماعات النهضة ويقوم بالترجمة للمبشر الشهير. وفي إحدى المَرّات التي كان فيها المُرسل يذهب إلى الفندق الذي كان المُبشر يقيم فيه، لكي يصطحبه إلى اجتماعات النهضة، فوجئ المُرسل بمشهد صادم لم يكن يتوقعه. كان المُبشر الشهير جالسٌ على أحد مقاعد «البار» المرتفعة وفي يده كأس خمر وذراعه الأخرى تحيط بفتاة ربما تكون إحدى فتيات الليل. فَرَك المُبشّر عينيه ليتأكد أنه لا يزال مستيقظاً وأن ما يراه ليس حُلماً. وعندما تأكد أنه حقيقة، أسرع واختبئ خلف أحد الأعمدة لكي لا يرى المبشر أنه قد رآه. وعندما تغير المشهد وابتعدت الفتاة، تظاهر المُرسل أنه قد جاء لتوِّه وسَلَّم على المُبشر بترحاب وأصطحبه إلى السيارة.

الأعجب أن ليال النهضة مرت بنجاح شديد. الآلاف يخلصون وعشرات

---

١ عظة في مؤتمر عالمي للكرازة لهيئة بيللي جراهام عقد سنة ٢٠٠٠ في أمستردام بهولندا Amsterdam 2000

الآيـــات والعجائب هــى وسائل الإضاح أمـا «الموضوع» فهو المحـــــبة

العُمي يُبصرون والمُصابون بالشلل يشفون وغير ذلك من الآيات والعجائب التي يقوم بها هذا المُبشر باسم المسيح. وطوال هذه الليال الثلاث والمُرسل يشعر بالضيق والتَعَجُّب ويقوم بالترجمة بنصف قلب (على حد تعبيره) وبداخله يتساءل: «كيف يستخدم الله مثل ذلك الإنسان المستبيح؟» لم يفاتح المُرسل ضيفه الكبير فيما قد رآه حتى انتهت النهضة الكرازية، وفي السيارة في طريقهما للمطار حيث كان المُبشّر سيستقل طائرته عائداً إلى بلاده، قام المُرسل بمواجهته بما قد رآه في الليلة الأولى. بعد جولة من الإنكار والمواجهة، وبعد أن أخبره المُرسل أنه سوف يرسل تقريراً بما رآه للهيئة التي ينتمي لها هذا المبشر، إنهار المُبشر وبكى واعترف بوقوعه فريسة لسلطان الشراب والنساء. ويضيف المُرسل في عظته أنه لم يمض وقت طويل حتى سمع عن انهيار حياة و خدمة هذا المُبشر، وطلاقه من زوجته بسبب إدماناته المختلفة وانكشاف الحياة المزدوجة التي كان يعيشها. وفَسَّر المُرسل استخدام الله لذلك المُبشر أثناء تلك النهضة بمحبة الله للنفوس من ناحية، وبأناة الله وصبره مع ذلك الخادم من ناحية أخرى، لعله يتوب ويعود إلى رُشده. لكنه لم يفعل فانتهت خدمته في نهاية الأمر.

الطريق الأفضل

هذه القصة وغيرها تُذكّرنا دائماً بكنيسة كورنثوس. فهذا الأصحاح الذي نتناوله بالدراسة يأتي بعد عدة إصحاحات، فيها يوبخ الرسول بولس أهل كنيسة كورنثوس أنهم بالرغم من عدم فقرهم في المواهب الروحية (وهذا

شيء جيد) إلا أنهم كانوا فقراء في المحبة التي تصبر وتحتمل وتتأنى وترفق ولا تظن السوء، فالانقسامات والخصومات كانت شائعة بينهم. كان فقرهم أيضاً في المحبة التي لا تفرح بالإثم سبباً في الإنحلال الأخلاقي والجنسي الشائع بينهم وبالطبع كان هناك دورٌ للأسباب الثقافية والاجتماعية التي ذكرناها سابقاً.

في الأصحاح السابق (الثاني عشر)، يسرد بولس الرسول أنواع المواهب الروحية المختلفة في الكنيسة ومنها المواهب الفائقة مثل القوات (كإقامة الموتى مثلاً) ومواهب الشفاء، وأنواع الألسنة وترجمة الألسنة. ثم يختتم هذا الأصحاح بعبارة يطالب فيها أهل كورنثوس في أن يستمروا في طلب المواهب الروحية لكنه يقول: «وأيضاً أريكم طريقاً أفضل» وبعد ذلك يبدأ في الأصحاح الثالث عشر يتكلم عن المحبة ويُعدد صفاتها وأعمالها. في الواقع عبارة «الطريق الأفضل هذه» تُذكِّرني بمقولة قالها في بداية هذه الرسالة عندما يقول: «اليهود يسألون آية، واليونانيون يطلبون حكمة، ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً». دائماً المتدينون يطلبون الآيات والعجائب، والعلمانيون يطلبون العلم والحكمة، لكن طريق المسيح الأفضل، هو طريق المحبة (آجابي) وليس هناك تعبيرٌ عن تلك المحبة إلا الصليب.[٢] الصليب هو «الآية[٣]» الكُبرى، وهو قِمة «الحكمة»، فكل البراهين التاريخية تثبت أن المحبة المُضَحيّة والمُبادِرة وغير المشروطة، هي قمة الحِكمة وهي أقوى قوة مُغَيِّرة على وجه الأرض.[٤] أما الآيات والعجائب التي صنعها المسيح،

---

٢ إنجيل يوحنا ١٥: ١٣

٣ إنجيل متى ١٢: ٣٩

٤ فيليب يانسي ما أعجب النعمة (بيروت: دار منهل الحياة، ٢٠٠٩) ص. ١٥٩- ١٨٠ (الفصل العاشر: ترسانة النعمة).

والتي يصنعها تلاميذه على مرالعصور فليست سوى «وسيلة الإيضاح»، وأما المحبة فهي «الموضوع» التي تشير إليه الآيات والعجائب.[٥]

إيمان ينقل الجبال، لكنه فى النهاية «لا شيء»!

من المُعتاد أن نعتقد أن من لديه إيمانٌ وثقةٌ في الله، ويستخدمه الله في صُنع المعجزات هو الأفضل روحياً والذي بالتالي ينجذب نحوه الناس. أما الذي فقط «يُحب» فهو ذلك الإنسان «الطيب» الذي نُحِبّهُ لكننا لا نحترمه كثيراً ولا نذهب إليه لنسأله عن آراءه الروحية ومشورته في الأمور. لذلك غريبٌ جداً أن يقول بولس الرسول هذه العبارة التي لو تأملناها لراجعنا الكثير من مقاييسنا الروحية، وبالتالي ممارساتنا الروحية. «إن كان لي كُل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة، فلست شيئاً». ثمَّ هل من الممكن أن يكون لإنسان إيمان حتى ينقل الجبال وليس له محبة؟ كيف يكون ذلك؟

لكي نفهم هذا ينبغي أن نفهم ما هي المحبة التي يقصدها بولس الرسول هنا، والتي يقصدها العهد الجديد، بل الكتاب المقدس كله (بما في ذلك «هسِد» التي هي الكلمة المُعبِّرة عن المحبة غير المشروطة (آجابي) في العهد القديم والتي عادة ما تُتَرجَم «الرحمة» باللغة العربية). هذه المحبة الروحية المقصودة ليست مُجَرَّد إعجاب بالله والبشر، أو ثقة بالله أو بشخصه أو قدراته، وليست هي الولع بالأمور الروحية، فيُمكن للإنسان أن تكون له كل هذه الأشياء وليست له المحبة بالمفهوم الذى يقصده العهد الجديد والتىهي:

٥إنجيل يوحنا ٢٠: ٣١

أن يريد الإنسان ويفعل أقصى الخير لنفسه وللآخرين،[٦] ويسلك سلوكاً مقصوداً[٧] بشكل ثابت ومستمر نحو ذلك الهدف في كل قرارات وسلوكيات حياته. هذا النوع من المحبة يتطلب تغييراً للطبيعة الإنسانية، لذلك يقول الرسول يوحنا أن كل من يحب فقد «وُلِدَ» من الله، أي نال طبيعة جديدة مشابهة لله. لذلك تختلف «المسيحية» عن غيرها من الأديان، في أن هدف الروحانية والدين فيها ليس الإيمان بعقائد أو الثقة بوعود، ولا الأعمال الصالحة وطاعة النواميس، وإنما هدف الأمر كُلِّه هو «تغيير الطبيعة»، لهذا السبب أحِب دائماً أن أعتبر أن الإيمان المسيحي، «نقلة تطورية» تُعلن ظهور خليقة جديدة، وفصيلة جديدة في حلقات تطور الإنسان. هذه الحلقة لا تختلف عن الحلقات السابقة جسدياً، في انتصاب القامة أو حجم الجمجمة ولا مثل هذه الأشياء، وإنما في القدرة على ممارسة هذا النوع من المحبة. والرسول يوحنا واضحُ جِداً في أن من لا يُحب (هذا النوع من المحبة) لم يعرف الله، لأن الله محبة.[٨]

هدف الروحانية المسيحية هو شيء واحد، وهو «تغيير الطبيعة» إلى طبيعة تستطيع أن تمارس وتعيش المحبة (آجابي).

6 Scott Peck, The Road less travelled, A New Psychology of Love (N.Y. Touchstone, 2003) p. 81

7 Thomas Oord, Science of Love: Wisdom of Wellbeing, (PA: Templeton press, 2004)

٨ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٨

ظهور المسيح في مصر

في منطقة ساخنة بالمشاعر والتوقعات في قلب ميدان التحرير البارد أطلقنا حناجرنا بالترنيم: «بارِك بلادي» و نحن نوزع أنظارنا بين ساعاتنا، التي تعلن أن خمسة دقائق فقط تفصلنا عن نهاية سنة[٩] ٢٠١١، وبين السماء التي ننتظر منها «علامة روحية» يطمئن به الله شعب مصر المسيحي، ويُعلن نفسه لشعب مصر كله. كانت الفقرة الكتابية التي يتأمل الراعي فيها هي تلك الفقرة من سفر حجي التي تقول: «لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُود: هِيَ مَرَّةٌ، بَعْدَ قَلِيل، فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ، وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَمِ. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ، فَأَمْلأُ هذَا الْبَيْتَ مَجْدًا، قَالَ رَبُّ الْجُنُود». وكان يحاول أن يَتَّزِن بين فكرة مجيء «مُشتهى الأمم» مجيئاً روحياً في السنة الجديدة بمعنى سلطان أكبر لملكوته على القلوب وشهادة روحية أكبر له من خلال شعبه، وفكرة انتظارنا «الليلة» لظهورٍ من نوع خاص.

لا يمكنني أن أخفي أن جزءاً مني كان بالفعل يتمنى حدوث شيء كهذا، وجزء آخر كان يستبعده لأنني أعلم أن الرب لا يفرِض نفسه على أحد، وأن المسيح عندما قام لم يُظهر نفسه قائماً إلا للمؤمنين به. لكني كقبطي مصري يشعر بالدونية الآن، يتمنى أن تأتيه «نُصرةٌ» ما من السماء. بالطبع كدارس لعلم النفس، كنت أعرف مصدر ميلنا لمثل هذه النبوات الآن. وكدارس للّاهوت والكتاب المقدس كنت أستبعد حدوث شيء كهذا، فما أتصور أن الله يريده لنا وما نحتاجه بالفعل هو زلزال يزلزل كياننا الروحي الأخلاقي ليملأ البيت مجداً روحياً حقيقياً، وليس مجدَ شعبٍ جاءته «النُصرةُ» من

---

٩ بعد أيام قليلة من اكتساح «الإخوان المسلمون» للانتخابات البرلمانية الأولى بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ في مصر.

السماء في مقابل من جاءتهم «النُصرةُ» من صناديق الانتخاب.

بالرغم من كل هذا كان هناك «طِفلٌ» بداخلي يتمنى شيئاً قوياً سحرياً يشعرني بأن «بابا» موجود ويحامي ويدافع وينصرنا. مرت الدقائق ثقيلة ثم لم يحدث شيء. عُدنا أنا وزوجتي وأولادنا مشياً إلى حيث قمنا بصفّ سيارتنا وتوجهنا للبيت مع ساعات الصباح الأولى ونحن نتمازح ويحاول كل منا أن يُخفي إحباطه.

مَرَّت شهورٌ كثيرة، وجاءت ثورة الثلاثين من يونيو ٢٠١٣ وسقط حُكم الإخوان، وفي أغسطس من نفس السنة تم فض اعتصام ميدان رابعة العدوية الشهير، وانطلق الإخوان وأنصارهم يحرقون الكنائس في الصعيد. عندئذ كان رد فعل المسيحيين مُبهراً للمجتمع المصري، إذا لم يتحركوا للدفاع عن كنائسهم بل منعوا بعض المسلمين المتسامحين من النزول لحماية الكنائس، قائلين لهم أنهم أَهَمّ من الكنائس، فالكنائس نستطيع أن نُعَوِّضها، وأما أنتم فلا نستطيع أن نُعَوِّضكم لو حدث لأحدٍ مكروه. وراح المسيحيون يُصلّون في كنائسهم المحترقة طالبين الغفرانَ لمن حرقوها وطالبين السلام لبلادهم. رُبما نعتبر هذا نوع من الخوف والسلبية، متستراً بالمحبة والتسامح. لكن بعد عدة أسابيع حدث هجوم إرهابيّ على فرح في كنيسة بالعاصمة وماتت طفلة مسيحية في عُمر الزهور. بعد ذلك خرجت أمها في لقاء تلفزيوني بثّته القنات الفضائية وتم رفعه على الانترنت فيه تعلن الأم، وهي سيدة بسيطة، غفرانها للقتلة الإرهابيين.

عندما حدثت هذه الأحداث، تذكرت ليلة رأس سنة ٢٠١٢ التي كُنا ننتظر فيها أن نرى إعلاناً فوق طبيعياً في سماء القاهرة، وصِرت أتساءل: ما هي

المعجزة الحقيقية؟ وهل ظهر المسيح بالفعل في مصر؟وهل في ليلة رأس سنة ٢٠١٢ أم في صيف سنة ٢٠١٣؟ وماذا نتعلم عن الكيفية التي اختار، ويختار المسيح دائماً أن يظهر بها؟[١٠]

المحبة أصدق من المعجزات. معجزات كثيرة حدثت (أو قيل أنها حَدَثَت) ولم يصدِّقها الكثيرون واعتبروها خرافات مُصَنَّعة. أما المحبة والغفران (آجابى) فعندما تتكلم، يصمت الجميع وينحني أمامها.

يقول جبران في «النبي»:

إذا خاطبتكم المحبة.. فصدِّقوها!

هذا عن القوة والمظاهر الفائقة والمواهب كبديلٍ بائس عن المحبة. في الفصل التالي سوف نتناول البديل الثالث الذي يفتن قِسماً كبيراً من العالم، وبلادنا منه، وهو الدين بشقيه: التقوى والالتزام من ناحية، والأعمال الصالحة من ناحية أخرى.

---

١٠ إنجيل يوحنا ١٧: ٢٦

الفصل السادس

المحبة والدين والسيطرة

إن أطعمت كل أموالي وسلّمت جسدي حتى احترق

وليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً

كان الدين مرحلة من مراحل الإعلان والعلاقة بين الله والإنسان. وبقدر ما كان إعلان الله في المسيح مختلفاً عن كل أنواع ومستويات الإعلان الأخرى[1]، بقدر ما تختلف النتيجة. فالنتيجة ليست مبادئ ووصايا تُطاع أو أعمال صالحة تُعمَل، وهذا ما يدعو إليه الدين دائماً ويؤدي إليه. وإنما هي طبيعة تتغير.[2] هذه الطبيعة هي ولادة جديدة[3] وبذرة جديدة توضع في التُربة[4]. أساسٌ جديد يوضع ولا يضعه أحد إلا الله نفسه بسيادة تامة. لكن الطاعة والعلاقة تجعل المولود ينمو والبذرة تنبت جذراً وساقاً تحمل أزهاراً وأثماراً، وتبني فوق الأساس[5]. وكلما نَمَت هذه الخليقة الجديدة يخرج منها التزام بالناموس، وأعمال صالحة. لكنها

> الطاعة والعلاقة تجعل المولود ينمو والبذرة تنبت وتبني فوق الأساس.

---

١ الرسالة إلى العبرانيين ١: ١- ٤

٢ رسالة بطرس الرسول الثانية ١: ٤

٣ إنجيل يوحنا ٣: ٣

٤ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ٦

٥ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ١٠- ١٥

عندئذ لا تخرج من محاولات طبيعة قديمة عاجزة، دائماً ما كانت فاشلة، وإنما من طبيعة جديدة، تطيع مشيئة الله وكأنها مشيئتها الشخصية[٦].

سمات الدين

الدين نشاط إنساني، يُحاول أن يُرضي الله بالمجهود البشري. وقد فشل الدين بكل صُوَرِه،[٧] ويستمر يفشل. وقد أراد الله له أن يفشل حتى يكون الإنسان مستعداً للخطوة التطوُّرية التالية وهي «الخليقة الجديدة في المسيح». في فقرة هامة من سفر أعمال الرسل (١٧: ١٧- ٣٤) نرى مواجهة حقيقية بين الدين والخليقة الجديدة التي يدعو إليها الإنجيل من خلال بشارة قيامة المسيح. دخل بولس معقل الدين، سواء الدين اليهودي أو الدين الوثني. فرَأَى الْمَدِينَةَ مَمْلُوءَةً أَصْنَاماً. رأى مجتمعاً مملوءًا بمحاولات بشرية للوصول إلى الله. أما بولس فلم يكن يتكلم عن دينٍ جديدٍ أو عن فلسفةٍ جديدةٍ كما كانوا معتادين أن يسمعوا، وإنما كان يتكلم عن شخص وعن حدث تاريخي، وكان يقدم هذه الشخص وذلك الحدث في صورة أخبار سارة «بشارة» لأَنَّهُ كَانَ يُبَشِّرُهُمْ بِيَسُوعَ وَالْقِيَامَةِ.

> الدين هو أن تتقي الله لا أن تُحبُّه. و أن تربط العلاقة معه بالأشياء والأماكن، وأن تراه دائماً مُطالباً بأن يُخدم بالأيادي وأنه يستمد قوته واحترامه من مجهوليته وابتعاده.

الدين دائماً ما يتكلم عن مبادئ وقواعد أكثر مما يتكلم عن اشخاص وعن أحداث، ودائماً ما يتكلم عن الثواب والعقاب، وكثيراً ما يحتوي الكلام على

---

٦ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ١-٤

٧ رسالة الرسول بولس إلى أهل رومية ٣: ٩- ٢٠

التهديد والوعيد أكثر من المحبة والفرح والسلام، لذلك فإن السمة الأولى للدين والتديّن هي أن *تتقي الإله لا أن تحبه*. أن تخافه وتهابه لا أن تشتاق إليه وتود الالتصاق به. فقط تريد أن تحمي نفسك منه وتتأكد أنك لم تغضبه، ثم تحاول أن تستخدم أعمال أو أشياء لتسترضيه وتقربك منه. الأدهى من ذلك أن تتقي ما لست تعرفه. هذا يزيد من الخوف، لأنك لا تدري ما الذي يغضبه، وما الذي يرضيه. إن فعلت حسناً تقول لعله يتقبل، وإن تبت عن معصية لا تعرف إن كان سوف يقبل توبتك أم لا. الله في المفهوم الديني إلهٌ نَزِق ذو نزوات لا يؤمَن مَكرَهُ ولا يعرف أحد كيف سيتصرف. ربما يحنّ الكثيرون إلى هذا الإله لأنه صورة يعرفونها وقد اعتادوا عليها ورُبما أسقطوها على الله. إنها صورة الأب البشري متقلب المزاج الذي يكون يوماً أطيب من العسل وأنعم من الزبد، ثم ينفجر غاضباً في لحظة لا تتوقع، فيكون علينا دائماً أن نسترضيه ونُقرِّب له القرابين، إن لم تكن من ذبائح، فلتكن من فروضٍ وأعمال صالحة.

السمة الثانية للدين هي *ربط العلاقة بالله بالأماكن والأشياء*. الدين يقول أن الله يسكن الهيكل والكنيسة والمعبد، أو أنه يعتبر أماكنَ وأراضي مُقَدَّسة أكثر من غيرها. كما أنه لا يمكن رؤيته والتعامل معه إلا في النصوص المقدسة. أما من يحب الله ويعيش الطبيعة الجديدة، فإنه يرى الله في ورق الأشجار وفي ندى المطر وفي ضمّة الأم لطفلها الرضيع وفي ضحكة الصديق للصديق، وفي عشق الرجل للمرأة وحب الإنسان للحياة. بولس الذي تحول من الدين إلى الإيمان ومن الفريسية للمسيحية، استطاع أن يرى الله في شعر شاعر وثني وليس فقط في النصوص المقدسة[٨].

٨ أعمال الرسل ١٧: ٢٨

السمة الثالثة للدين هي أنه يرى الله *مُحتاجاً لخدمة الإنسان*. الشخص المتدين يفكر دائماً ما الذي يريده الله منه. وكأن الله محتاج للبشر. الصَنَم الذي يصنعه البشر يُخدَم بأيدي الناس فيقربون إليه القرابين ويحجون إليه ويصلّون له ويصومون. أما الإله الحقيقي فيأتي ليَخدُم ويُعطِي لأنه ليس محتاج لنا بل نحن المحتاجون إليه. نحن المرضى المحتاجون شفاءه والجوعى للحب المشتاقون لحضنه. الإله الحقيقي يُعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء. إن الخدمة الحقيقية لله هي أن نخدمه في البشر الذين يحبهم، بأن نعطيهم ما قد أعطانا من حب وقبول واحترام. أيضاً الإله الحقيقي يرى كل البشر أبناء له، ولا يميز بين أمة وأمة، فهو كما يقول بولس لليونانيين هنا: *قد صَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ*، أما الدين فهو أهم أداة للتمييز بين البشر ومصدر اساسي من مصادر التعصب والكراهية.

سمة أخرى للدين أنه *يرى الله بعيداً وعلى الإنسان أن يبحث عنه*. الدين هو أن يطلب الإنسان الله ويتلمسه لعله يجد وكأن الله مفقود. مع أن الله عن كل واحد منا ليس بعيداً، نحن البعيدين المفقودين. نحن به نحيا ونتحرك ونوجد. الله قريب أكثر مما نظن وأكثر مما يستطيع عقلنا البشري أن يستوعب. في المسيح اقترب الله اقتراباً صَدَمَ الناس، وصَدَمَ فكرتهم عن الإله الذي يجب أن يكون متسامياً جداً مترفعاً وبعيداً جداً، وكأنه يستمتد هيبته وجلاله من مجهوليته و ابتعاده ونفوره من البشر، ومن كل ما هو إنساني ومادّي وجسدي. أما الله في المسيح فكان هو الراعي الصالح الذي يبحث عن الخراف الضالة.

المحبة ليست أعمالاً

أحياناً توجد نبتة المحبة في القلوب لكن أعشاب الكسل وعدم القدرة على الخروج خارج النفس للآخرين تحتاج لبعض التنقية من خلال الضغط قليلاً على النفس.

المحبة لابد أن تُنتج عملاً[٩]، لكن العمل، مهما كان، لا يخلق محبة غير موجودة. وهذه الحقيقية يريد بولس الرسول أن يقولها هنا في هذا الأصحاح مستخدماً تعبيرات وتشبيهات غاية في القوة. فيقول: «إن أطعَمت كل أموالي، وإن سلَّمت جسدي حتى أحتَرِق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً». كيف يُمكن أن يُطعم الإنسان كل أمواله للفقراء ولا تكون له محبة؟ وكيف يُسلِّم جسده للاستشهاد من أجل الإيمان، ولا تكون له محبة؟ دوافع كثيرة يُمكن أن تكون موجودة في مثل هذه الأعمال غير المحبة، كالرغبة في تهدئة شعورٍ بالذنب وتأنيب الضمير، أو رغبة في إرضاء الله ونوال «الجَنّة»[١٠] أو حتى إرضاء الناس ونوال مكانةً بينهم. ولذلك فإننا كثيراً ما نضغط أنفسنا لكي نفعل أشياء من أجل الآخرين لا نُحبها وذلك، لإجل إرضاء ضمائرنا التي تريد أن «تُطيع وصية المحبة» ظانين أن وصية المحبة تفرض علينا فعل أشياء. المحبة ليست أعمال وإنما هي تَوَجُّهٌ واضح ومُحدَّد نحو **صالح الآخر**. أما أي أعمال تبدو في الظاهر أنها أعمال محبة لكنها غير نابعة من محبة حقيقية للأشخاص ورغبة صادقة في صالحهم، فهي أعمال لا تنفع شيئاً. لا تنفع من يفعلها، ولا من تُفعَل من أجله.

---

٩ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣: ١٨

١٠ كثيرون الآن يقدمون أجسادهم لتُفَجَّرها الأحزمة الناسفة من أجل الذهاب للجنة. وبالطبع ليست لهم محبة. فهم يُفَجِّرونها في الناس!

تذكرت هذا وأنا أستمع إلى صراع إحدى عميلاتي وهي تواجه موقفاً صعباً بالنسبة لها. فهناك طفلين من أقارب زوجها، توفت أمهما. وعَرَضَ عليها زوجها استضافتهما، خاصة وأنها وزوجها لم يُنجِبا. ولأن هذه السيدة ليست مغرمة كثيراً بالأطفال، كما أنها تنتمي إلى ثقافة اجتماعية مغايرة تماماً لثقافة زوجها وأهل زوجها، فكانت تشعر بثقل شديد وعدم رغبة في استضافة هذين الطفلين، لكنها كانت تشعر بتأنيب الضمير وتتساءل: «ما موقفي من الله عندئذٍ؟ هل أضغط على نفسي وآخذهما من أجل المحبة؟».

في الواقع ليس هذا سؤالاً سهلاً. فإذا ضغطت على نفسها وفعلت هذا دون محبة ورغبة قلبية صادقة في مصلحة هذين الطفلين. فلاهي سوف تنتفع شيئاً، بل رُبما يزيدها الأمر مرارة وكراهية لهذين الطفلين ولزوجها وأسرته، ولا الطفلان سينتفعان شيئاً إذا رَبَّتهما امرأة تتغصب على نفسها لتقبلهما «لكي تُرضي الله»، وهذا بالتحديد ما يقوله بولس هنا، فمن يسلم جسده حتى ليحترق وليست له محبة فلا ينتفع شيئاً. المحبة هي أن تريد وتفعل الصالح لهذين الطفلين، وفي هذه الحالة رُبما تساعدهما بطريقة أخرى تحقق صالحهما أكثر من الحياة في بيت ومع أم لا تطيق الأطفال.

لكن هذا السؤال لا يزال صعباً، وخاصةً إذا طبقناه على مواقف كثيرة في العطاء والتضحية، فأحياناً توجد نبتة المحبة في القلوب لكن أعشاب الكسل وعدم القدرة على الخروج خارج النفس للآخرين تحتاج لبعض التنقية من خلال الضغط قليلاً على النفس. في هذه الحالة عندما نضغط على النفس قليلاً وننزع هذه الأعشاب، تنمو شجرة المحبة وتزهر وتثمر. لكن أي ضغط على النفس، وأي أعمال، بدون وجود نبتة المحبة في القلب، لا تنفع شيئاً بل

تزيد القلب مرارة وكراهية.

يتكلم جبران على لسان «النبي» عن معمودية الألم فى العطاء :[١١]

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم ـــ وهُم يعطونه لأجل الشُهرة، ورغبتهم الخفية في الشهرة الباطلة تضيِّع الفائدة من عطاياهم.

ومنهم من يملكون قليلاً ويُعطونه بأسره.

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة. هؤلاء لا تفرغ صناديقهم، وخزائنهم ممتلئة أبداً.

ومن الناس من يُعطون بفرحٍ، وفرحهم مكافأة لهم

ومنهم من يُعطون بألم **وألَمُهُم معمودية لهم.**

١١ جبران خليل جبران *النبي*. (القاهرة: دار البستاني) ص. ٣٠- ٣١

السيطرة والمحبة

الدين الخالي من المحبة سرعان ما يكشف عن وجهه القبيح فنرى السيطرة والسيادة[١٢] على الآخرين باسم الدين، سواء من خلال الكلام، أوالمظهر الديني أو الإدانة،[١٣] وغيرها من المظاهر، ويتذرع دائماً بالمحبة. أما المحبة

فتخرج من النفس للآخر لتخدمه لا لكي تسود عليه.

- المحبة تخدم وتنصح وتُمَكِّن وفي النهاية تطلق الآخر حُرّاً ليختار بنفسه ما يفعل وما لا يفعل.

- المحبة تحمل «أثقال» الآخر، وفي النهاية تتركه حُراً لكي يحمل «حِملَ» نفسه بنفسه لكي ينمو ويصير مسؤولاً.[١٤]

- في خروج المحبة للإصلاح، ينظر الإنسان إلى نفسه ويرى أنه هو نفسه، إما أنه يفعل نفس الأشياء[١٥] أومُجرَّب بأن يفعل مثلها[١٦].

- المحبة لا تبحث عن «إرضاء» الآخر وإنما عن «خَيرِه»، فتواجه وتقول الصدق، لكن في لُطف واحترام ووداعة.[١٧]

- المحبة تُعاتِب (عن الخطأ) وتطلب (الحق) بوداعة وبدون تجريح أوتشهير.[١٨]

---

١٢ رسالة بطرس الرسول الأولى ٥: ٣

١٣ إنجيل متى ٥، ٦، ٧ (الموعظة على الجبل)

١٤ رسالة بولس الرسول لأهل غلاطية ٦: ٢، ٤

١٥ رسالة الرسول بولس لأهل رومية ٢: ١، ٢١

١٦ غلاطية ٦: ١ب ن ٣، ٤

١٧ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٤: ٢٩، ٣٢

١٨ إنجيل متى ١٨: ١٥- ٢٠

- المحبة التي تعاتب، أيضاً تغفر وتسامح وتترك بسهولة، مثل الأطفال، ما لها عند الآخر.[١٩]

أخيراً. العلم والقوة والعمل الصالح كُلّها يُمكن أن تكون بدائل للمحبة وتبدو مثلها وذلك لأنها في الواقع من ثمار المحبة. لكن هذه الثمار بدون أصل جذر المحبة النابت، لا تنفع شيئاً بل سرعان ما يدُبُّ فيها الفساد وتموت وتسقط لأنها ليست ناتجة من أصل المحبة. العلم والقوة والعمل الصالح كلهم يحتاجون للمحبة والمحبة لا تحتاجهم، وإنما هي تصنعهم وتُحييهم وتجعل لهم فائدة وقيمة.

يقول جبران في «النَبي»:

المحبة لا تعطي إلا ذاتها

المحبة لا تأخذ إلا من ذاتها

لا تملك المحبة شيئاً

ولا تريد أن أحداً يملكها

لأن المحبة مكتفية بالمحبة

في الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب سوف نتناول ما تبقى من هذا الأصحاح الجميل عن المحبة وهو يدور حول مفهوم النموّ في المحبة من الطفل للراشد، ومن الناقص للكامل، من الغامض للواضح، ومن البعض للكل.

---

١٩ إنجيل متى ١٨: ٢١- ٣٥

- المحبة التي تعاتب، أيضاً تغفر وتسامح وتترك بسهولة، مثل الأطفال، ما لها عند الآخر.[١٩]

أخيراً. العلم والقوة والعمل الصالح كُلّها يُمكن أن تكون بدائل للمحبة وتبدو مثلها وذلك لأنها في الواقع من ثمار المحبة. لكن هذه الثمار بدون أصل جذر المحبة النابت، لا تنفع شيئاً بل سرعان ما يدُبُّ فيها الفساد وتموت وتسقط لأنها ليست ناتجة من أصل المحبة. العلم والقوة والعمل الصالح كلهم يحتاجون للمحبة والمحبة لا تحتاجهم، وإنما هي تصنعهم وتُحييهم وتجعل لهم فائدة وقيمة.

يقول جبران في «النَبي»:

المحبة لا تعطي إلا ذاتها

المحبة لا تأخذ إلا من ذاتها

لا تملك المحبة شيئاً

ولا تريد أن أحداً يملكها

لأن المحبة مكتفية بالمحبة

في الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب سوف نتناول ما تبقى من هذا الأصحاح الجميل عن المحبة وهو يدور حول مفهوم النموّ في المحبة من الطفل للراشد، ومن الناقص للكامل، من الغامض للواضح، ومن البعض للكل.

---

١٩ إنجيل متى ١٨: ٢١- ٣٥

«لَنا اختٌ صغيرة ليس لها ثديان. فماذا نصنع لأختنا في يومِ تُخطَبُ»

نشيد الأنشاد

عندما كُنتُ طفلاً كنت أتكلم كطفلٍ وأفكر كطفلٍ وأفهم كطفل

أما الآن وقد صِرتُ رجلاً ناضجاً، فقد انتهيت من طُرُق الطفولة

فنحن الآن نرى انعكاساً باهتاً في مرآة، لكن عندما يأتي الكامل،

سنرى وجهاً لوجه.

الآن معرفتي جزئية، لكن حينئذٍ

سأعرِف كما يعرفني الله

الأصحاح الثالث عشر من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١١، ١٢

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الثالث

النموّ في المحبة

من صعوبات المحبة، والتي تجعلنا نبحث عن بدائل مُزيفة لها، ليس فقط أنها مؤلمة ومُكَلِّفة، وتحتاج منا الموت عَمّا اعتدنا عليه من طُرق تفكير وسلوك وتَوَجُّه روحي مُنحصِر في النفس، ولكن أيضاً لأنها تحتاج لوقت طويلٍ لكي تنمو. الثمار الجاهزة نشتريها من السوق ونأكلها ناضجة دون أي انتظار. أما إذا أردنا زرع شجرة، فالشجر المُثمر نزرعه ونرويه ونعتني به لسنوات قبل أن يعطي باكورة إثماره. هكذا المحبة.

الفصل السابع

لَمّا كُنتُ طِفلاً

كطفلٍ كنت أتكلم وكطفلٍ كُنتُ أفطِن وكطفلٍ كُنتُ أفتكر

الافتتان بأي شيء أكثر من المحبة ليس سوى «طفولة» روحية.

عندما تظهر ثمار المحبة (آجابى)، فإننا عندئذ نُدرك أن كل ما سواها وما كان قبلها لم يكن سوى كلام الأطفال وفِكر الأطفال وسلوك الأطفال. هذا بالتحديد ما يريد بولس الرسول أن يقوله وهو يسترجع حياته الماضية وكيف عاش في الدين اليهودي وفي العِلم اليوناني، واختبر القوة المعجزية في آياتٍ وإعلانات كثيرة. لكنه الآن يرى أن كل هذه الأمور عظيمة وصالحة في ذاتها، لكن الافتتان بها أكثر من اللازم لم يكن سوى «طفولةً» روحية، عليه أن يضعها خلف ظهره (وهكذا ينصح أهل كورنثوس أن يفعلوا) ويمتد إلى الأمام إلى المحبة التي لن يَعفَى عليها الدهر أبداً ولا تسقط مُطلقاً. فالنبوات سَتُبطَل، والألسنة فستنتهي، والعلم سيُبطَل لأننا نعلمُ بعض العِلم ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل[1] فحينئذٍ يبطُل ما هو بعضٌ.

---

١ يذهب بعض المفسرين إلى أن الإشارة إلى الكامل هي إشارة لمجيء المسيح الثاني. ويشير البعض إلى أن هذا الكامل هو الكتاب المقدس. لا أدري. ولا أظن. أعتقد أن بولس هنا يتكلم بشكل مُطلق عن النمو والاكتمال فالكامل هو الذي نَضج واكتمل. والنضوج هنا هو نضوج الشخصية الروحية الذي سوف نحيا مع الله إلى الأبد. وجهاً لوجه حيث سوف نعرف كما عُرِفنا وسوف لا يكون هناك حاجة بعد إلى نبوات.

كطفل كنت أتكلم و كطفل كنت أفتكر

كلام الإنسان يُعبِّر عن تفكيره. لذلك فإن كلام الطفل وتفكيره دائماً ما يدوران حول نفسه. من الطبيعي أن يُدور عالم الطفل حول نفسه وهذه ما يسمونها بالنرجسية الطبيعية، وذلك لأن الطفُل لا يستطيع بعد أن يخرج خارج نفسه ويرى العالم والآخرين بمعزل عن نفسه. أما الراشد (الرجل في حالة بولس) فيستطيع. أما إذا ظل الإنسان يدور حول نفسه بالرغم من كونه راشداً، فنحن نقول عنه عندئذ أنه رضيع، أو طفل، أو رُبما مراهق وجدانياً[٢]. وعندئذ لا تكون النرجسية أمراً طبيعياً، وإنما تكون اضطراباً في الشخصية[٣]. لذلك عندما بدأ بولس يتكلم عن نفسه ويدافع عن رسوليته في الأصحاح الحادي عشر و الثاني عشر من الرسالة الثانية لنفس الكنيسة، أدرك و استدرك وقال في العدد الحادي عشر: «تكلَّمتُ كأحمقٍ».[٤]

> النمو في المحبة هو أن نطلبها ونستقبلها كالأطفال ونُعطيها كالراشدين.

ولسبب النرجسية الطبيعية، فإن الطفل عندما يتكلم، فإنه كلامه يحتوي على الطلبات أكثر من أي شيءٍ آخر. هذه الطفولة وتلك البساطة ينبغي بشكلٍ ما، أن تظل فينا دائماً فالمسيح يحُثنا على الطلب من أبينا السماوي كالأطفال.[٥] لكننا كلما نضجنا روحياً، كلما تبدأ طلباتنا في الخروج من نطاق أنفسنا

---

٢ بيتر شكازير. ووارن بيرد *نضوج الكنيسة ونضوج قادتها*. ترجمة جين محيي (القاهرة: دار النشر الأسقفية، ٢٠١١) ص. ٨٢- ٨٤

٣ اضطراب الشخصية النرجسي Narcissistic Personality Disorder (من مجموعات اضطرابات الشخصية غير الناضجة Immature Personality Disorder)

٤ الرسالة الثانية لأهل كورنثوس ١٢: ١١

٥ إنجيل متى ٧: ٧

ونطلب أيضاً ما هو لفائدة آخرين ولامتداد ملكوت الله. وعندما نزداد في الحكمة والرؤية تأتي طلباتنا أقل انحصاراً في النفس وأكثر توافقاً مع مشيئة الله لنا وللآخرين وللعالم فتتحقق هذه الطلبات.[٦] باختصار علينا أن نظل نطلب المحبة ونستقبلها كالأطفال،[٧] ونعطيها كما يعطيها الراشدون.

كطفلٍ كُنت أفطن (أفهم)[٨]

سوف تظل رغبتنا في المعرفة أكبر من قدرتنا على المعرفة.

لأن الطفل لا يستطيع أن يخرج خارج نفسه، يظل فهمه واستيعابه محدودين برؤيته المحدودة. لا يستطيع الطفل أن يرى الصورة الكاملة بل تظل رؤيته ضيقة. لعل بولس كان يصف ذلك الفهم المحدود عندما تكلم عما أسماه «مذهب عبادتنا الأضيق»[٩] الذي جعله يعيش فريسياً، وليس ذلك فقط بل قد جعله هذ الفهم الضيِّق يصنع أموراً كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصري. وفي العدد الثاني عشر من نفس الأصحاح من سفر الأعمال، يصف ظهور المسيح له في رؤيا وكيف فتحت هذه الرؤيا زوايا عقله، وفتحت أمامه الكُتب فرأى ما لم يكن يراه من قبل.

لعل هذه الرؤية الأكثر اتساعاً جعلته يرى أيضاً أن عمل الله ليس فقط في اليهود، وليس فقط من خلال الناموس، وهذا ما يُعلنه بشرح مستفيض في الأصحاحين الأولين من رسالته إلى أهل رومية. وما يقوله للّيونانيين في

٦ إنجيل يوحنا ١٥.
٧ إنجيل متى ١٨: ٣
٨ الترجمة العربية المبسطة
٩ أعمال الرسل ٢٦: ٥

آريوس باغوس عن أن الله «قد صنعَ من دمٍ واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض، وحتم بالأوقاتِ المعينة وبحدود مسكنهم لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه، مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد، كما قال بعض شعرائكم أيضاً: لأننا أيضاً ذُرِّيَته».[١٠] الله يعمل في قلوب الجميع ليوقظ فطرتهم التي خَلَقَهمُ عليها وهذه الفِطرة هى المحبة.

بعض المعرفة وبعض العلم

من سمات الطفل أنه يريد أن يعرف كل شيء، ويظن أنه من الممكن أن يعرف كل شيء. وكُلما يكبر الطفل كُلَّما يكتشف الحقيقة، وهي أننا لن نعرف كل شيء إننا هنا في هذا العالم ننظر في لغز.[١١] وسوف تظل رغبتنا في المعرفة أكبر من قدرتنا على المعرفة، وهذا هو أحد ألوان التوتر الوجودي الإنساني الذي نعيش فيه ونئن تحت وطأته. من سمات النضوج الوجداني أن يحصل الإنسان على السكينة التي تقبل الأشياء التي لا يستطيع أن يغيرها، ولا يستطيع أن يفهمها. وفي نفس الوقت تكون له الشجاعة والشَغَف لكي يظل يبحث عن المعرفة، موقناً أنه كلما عرِفَ، كلما أدرك أبعاد وأعماق جهله. هذا نفسه يقوله بولس الرسول في مُستَهَلّ الأصحاح الثامن من الرسالة الأولى لأهل كورنثوس: «فإن ظن أحدهم أنه يعرف، فإنه لا يعرف كما ينبغي. لكن من يُحب الله فإنه يكون معروفاً من الله»[١٢]. لذلك فهو هنا في أصحاح

---

١٠ أعمال الرسل ١٧: ٢٦- ٢٨

١١ كانت المرآة في ذلك الوقت ليس كما هي الآن بل قطعة معدنية مصقولة لامعة تعكس الصور ولكن ليس بدقة كما هي المرايا الآن.

١٢ كورنثوس الأولى ٨: ٢، ٣ (الترجمة العربية المبسطة)

المحبة يقول أن مُنتهى المعرفة هو لا أن تَعرِفَ،[١٣] بل أن تُعرَفَ من الله. عندئذ تتخلى عن السيطرة والرغبة في أن تكون الفاعل دائماً، وتسعد بأن تكون أنت المفعول به، ولسان حالك عندئذٍ يقول: «إن كان الله يعرفني بالكامل، فسأتوقف عن محاولة معرفة كل شيء، وأكتفي بأن أكون معروفاً لدى من يعرف كل شيء».

أبطَلتُ ما للطفل

لمّا كُنتُ طفلاً. كُنت مفتوناً بالعلم والقوة،[١٤] والآن لم أعد مفتوناً بهما. لم أعد أرغب في أن أعرف لكي أطمئن. فأن مطمئنٌ فقط في كوني معروفاً من الله ولست معروفاً فقط بل محبوباً منه، ولديه خطة لتطوير حياتي، ينتظرني كل يوم لكي أتعاون معه فيها وأعمل معه على تحقيقها. ولم أعد أريد أن أكون قوياً حتى أثق، لقد أصبحت المحبة غير المشروطة هي مصدر ثقتي التي تطرح إلى خارج خوفي من المستقبل ومن العالم ومن نفسي. لم أعد أريد أن أكون أكثر علماً أو أكثر قوة. فقط أصبَحتُ أريد المحبة. أريد أن أكون أكثر محبة لله وللآخرين ولنفسي. أن أُحِبُّ أكثر وأن أُحَبّ أكثر. وإن أردتُ العلمَ فلكي أقدمه قرباناً على مذبح المحبة، وأن طلبت القوة فلكي أتمكن من أن أعمل أعمال المحبة.في الفصل القادم (تدريبات المحبة)، سوف نرى كيف أن بذرة المحبة لا تصير شجرةً قويةً باسقة مزهرةً مثمرةً بدون جهدٍ مُخلص. صحيحٌ أن الله هو الذي يُنمي لكن المحبة بهذا المفهوم تحتاج للتدريب المستمر.

---

١٣ كورنثوس الأولى ١٣: ١٢

١٤ ص. ٦٥

الفصل الثامن

تدريبات المحبة

الخروج من نطاق النفس إلى الآخر

ليست المحبة مشاعَر طيبة ولا نيّات صالحة، ولا هي أمر يغدقه الله علينا ونحن نستقبله في سلبية. إنها كما أشرنا أكثر من مرة في هذا الكتاب، تَوَجُّه يقبل الآخر كما هو، و يريد ويفعل الصالح بشكل مقصود للآخرين. المحبة (آجابي) هي من الله، لكننا لا نستقبلها إلا إذا مارسنا الخروج من أنفسنا للآخرين. إذا ظللنا نرى الدنيا فقط من إطارنا المرجعي ومنظورنا الشخصي، سوف لن نستطيع أن نُحب هذا النوع من المحبة. في هذا الفصل سوف ألقي الضوء على بعض «المُمارسات» العَمَلية المقصودة التي بها نخرج للآخر فنصير إناء صالحاً لاستقبال المحبة.

العلاقات العميقة

لا يخفى على أي إنسان لديه الحد الأدنى من المنطق والحد الأدنى من الشعور بنفسه وباحتياجاته العميقه، أن أعمق احتياجات الإنسان وأقواها هي احتياجه للحُب. ومع ذلك فإن الحُب الحقيقى لا يتواجد كثيراً بين البشر. لماذا؟ لماذا أعمق احتياجاتنا هو أن نُحب وأن نُحَب، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نفعل ذلك؟ كما لو كانت طاقة إعطاء الحُب واستقباله مأسورة ومُقيَّدة، فنريد أن نُحِب وأن نُحَب، لكن كل ما يخرج مِنّا ليس كذلك. نخاف

أن نُعلِن عن احتياجنا ونخاف أن نخرج للآخر فنُرفَض ونُحبط وإمعاناً في حماية النفس، وهكذا نرفض الآخرين قبل أن يرفضونا هُم.

العلاقات العميقة هي ببساطة المُخاطرة بتخطي هذه الدفاعات، والمشاركة مع الآخرين بعُمق عما نشعر به وما نعاني منه وما نحتاجه وما نفشل فيه وما نخزى منه. لا نزال نرى مدى الائتناس الذي يحدث في مجموعات المشاركة والمساندة التي تُمارِس تدريباً هاماً للمحبة وهو «الاعتراف»[1] أو «قول الصِدق في المحبة».[2] الاعتراف بالزلات والخطايا يجعلنا مفتوحين أمام بعضنا البعض وهذا يزيل الدفاعات والحواجز ويُمَكِّن للمحبة أن تسري بيننا. إن كُنا نريد أن نُحِب وأن نُحَب *كما نحن* (محبة غير مشروطة)، ينبغي أن نظهر أمام بعضنا البعض *كما نحن*. الأقنعة تصنع علاقات مزيفة، أما السلوك في النور فيجعلنا أبناء نور بسطاء، نستطيع أن نستقبل الحُب ونُعطيه.

لكوني أؤمن بأن مثل هذا المُمارسة المجتمعية ضرورية لكي نُنمّي هذا النوع من العلاقات ونجعل أمام الناس فُرَصٌ لكي يمارسوا مثل هذا النوع من العلاقات، بدأنا مُنذ سبع سنوات مدارس تدريبية[3] فيها نُمارس هذا النوع من التفاعل الإنساني أسبوعياً بشكل مُقَنَّن لمدة ثلاث شهور ثم شهوراً بشكل مستمر (الزمالة) حتى يصبح الانفتاح مهارة نستخدمها فيما بعد في كل علاقاتنا. وفي واقع الأمر تَخَرَّجَ الآلاف في هذه المدارس في محافظات مصر المختلفة. والأمر المثير أن هذه المدارس يأتي إليها رجال ونساء من كافة الأعمار والخلفيات والأديان، مصداقاً لذلك الافتراض الذي يقول أننا كُلنا

---

١ رسالة يعقوب ٥: ١٦

٢ رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٤: ١٥ . ٢٥

٣ مدرسة مهارات الحياة BLESS. Basic Life and Emotional Skill School وغيرها

كبشر نتوق لخبرة المجتمع The Community Experience[4]

كما أن التحدّي الكبير الذي أضعه أمام عملائي الذين يأتون راغبين في التعافي من الميول المثلية غير المرغوبة هو أن يذهبوا إلى أصدقائهم ويشاركونهم بحقيقة صراعهم مع هذه الميول ورفضهم لها ورغبتهم في التغيير، وليس ذلك فقط، بل ويشاركونهم بتاريخ حياتهم وطفولتهم والأسباب التي قد تسببت في نمو هذه الميول عندهم. عندما يقبلهم أصدقاؤهم الغيريين[٥] ولا يُغيِّروا معاملتهم معهم[٦]، فإن هذا القبول يعيد التحامهم بالذكور وبالذكورة. ذلك الالتحام الذي لم يحدث في الطفولة وأدى إلى ذلك العجز في الهُوِّية الذكرية الذي تسبب في الميول المثلية. المحبة غير المشروطة (آجابي) تشفي وتُنمي الشخصية والهُوية الإنسانية بشكل عام. لذلك أسميت كتابي الذي كتبته عن الجنسية المثلة «شفاء الحُب»[٧] ــ الحُب يُشفَى، ويشفِي.

اذهب

الخروج من النفس للآخر صعب بطبيعة الحال، ويزداد الأمر صعوبة عندما يكون هناك خطأ أو سوء تفاهم أو غضب في العلاقة. في تعليم المسيح عن العلاقات نجد

> إننا نجد ذهاب العتاب أو الاعتذار في منتهى الصعوبة لأننا غير معتادين على العلاقات العميقة التي تتم فيها مشاركة كل أنواع المشاعر.

4 Scott Peck, *The Different Drum. Community Making and Peace* (N.Y.: Touchstone, 1987).

٥ ذوو الميل الجنسي الطبيعي (للجنس الآخر).

٦ أوسم وصفي، *صديقي مثلي. ماذا أفعل؟* (عمان: أوفير، ٢٠١٠)

٧ أوسم وصفي، *شفاء الحُب* (القاهرة، ٢٠١١)

فعل الأمر «اذهب» يتكرر مرتين. الأولى مُوَجَّهة للمُخطئ عندما يتذكر أن لأخيه شيءٌ عليه، فيذهب ليصطلح مع هذا الأخ.[٨] والثانية مُوَجَّهة لمن أخطأ أخوه في حَقِّه. هذه المرة يذهب لكي يُعاتِب.[٩]

إننا عندما نذهب لنصطلح، فإننا كثيراً ما نلوم الآخر، فنقول مثلاً: «أنا آسف، لكن أنت الذي جعلتني أفعل ذلك!». وبالطبع عندما نذهب لنعاتب، فالفرصة أكبر للوم، ورُبما الهجوم والإهانة، وكثيراً ما تكون الردود مثيرة للمزيد من الجدل والصراع. لهذا السبب فإننا كثيراً ما نُقرر أن نبتلع الإساءات ونتظاهر أن كل شيء على ما يرام فتتسمم العلاقات، أو نختار، من طرف واحد، أن نخفض مستوى العلاقة، أو نُنهيها تماماً. كل هذا بسبب أننا لم نُدَرّب أنفسنا على العتاب السليم الذي ينبغي أن يحتوي على النقاط الخمس التالية:

أولاً: سرد ما حدث بدون أية تفسيرات أو إضفاء معاني. (على سبيل المثال: يوم الأحد الماضي عندما كنا واقفين معاً بعد الاجتماع، وكُنت أتحدث معك، فجأة تركتني وذهبت تتكلم مع شخص آخر بينما أنا كُنت أتكلم معك).

ثانياً: مشاعري تجاه هذا الأمر. (على سبيل المثال: «أنا تضايقت») لاحظ أن الكلام عن المشاعر الشخصية لا يُثير لوم أو اتهام.

ثالثاً: التفسير الذي أدّى لتلك المشاعر (على سبيل المثال: «لأنني شعرت أنك تتجاهلني ولا تهتم بي») لاحظ أنه لم يقل:«أنت تتجاهلني ولا تهتم بي» فهذا اتهام ولوم. لكنه قال أنه هو الذيْ استقبل الأمر هكذا. هذا يفتح الطريق أمام الأخ المخطئ أن يُصَحِّح وجهة النظر و يعترف دون أن يشعر بالخزي

٨ إنجيل متى ٥: ٢٣- ٢٥
٩ إنجيل متى ١٨: ١٥

ويعتذر دون أن يشعر بالتهديد.

رابعاً: الطَلَب.[١٠] (على سبيل المثال: «أنا ممن تؤثر فيهم هذه المواقف وأحب أن تعطيني اهتمام عندما أتكلم») الطَلَب فيه اتضاع واحترام للآخر، وفيه أيضاً صِدق مع النفس واحترام لاحتياجاتها.

خامساً: الاعتراف بإمكانية الخطأ واستعداد للاستماع للعتاب(على سبيل المثال: «أنا أيضاً أخطئ وأرجوك إن فعلت شيء ضايقك مني أن تخبرني»).

العتاب بهذه الطريقة يزيد بنسبة كبيرة من احتمالية أن يسمع إليك أخوك وتربح أخاك كما يقول المسيح. لكن بالطبع يمكن أن تحدث ردود أفعال أخرى، عندها ينبغي اتخاذ خطوات أخرى.[١١]

إننا نجد هذا الذهاب في منتهى الصعوبة، لسبب واحد، وهو أننا غير معتادين على العلاقات العميقة التي فيها نمارس التعبير عن كل أنواع المشاعر.

إننا نجلس في الكنائس مثل الجُزرُ المنعزلة، نُرَنِّم معاً، ونستمع للعظة ثم نتبادل سلامات سطحية ثم ننصرف. والحقيقة أن المشكلة هي أن الكنيسة تحولت إلى تجمعات كبيرة لا يُمكنها فيما بعد ممارسة خبرة المجتمع التي أشرنا إليها[١٢]، حتى الأسرة لم تعد فيها فرصة مشاركة المشاعر.

---

١٠ أوسم وصفي. *إنسان الملكوت. خليقة جديدة ينتظرها العالم* (القاهرة. ٢٠١٣) ص.٣٦

١١ أوسم وصفي *صحة العلاقات. تحدي الشفاء والنضوج في مجتمع حقيقي* (القاهرة. ٢٠١٣) ص. ١٢١- ١٣٦ (حل الصراع)

١٢ لذلك لا بديل عن ممارسة "المجموعات الصغيرة" ولا بديل عن ممارسة المشاركة العميقة والاعتراف في هذه المجموعات.

تجديد الذهن

هذا بالنسبة للعلاقات الحميمة. لكن المحبة ليست فقط تَوَجّهاً يُمَارَس مع الأهل والأصدقاء والزملاء وشركاء الكنيسة والخدمة. المحبة تَوَجّه يحكُم كل سلوكياتنا اليومية. كيف نقف في الطوابير؟ وكيف نُطالِب بحقوقنا بدون حِدّة إذا وقف أحدهم في مكاننا؟ مَع الاستعداد للتنازل بابتسامة. وكيف نقوم «بركن» السيارة؟ فلا نأخذ مكان سيارتين لسيارة واحدة ولا نُصر على «ركن» السيارة أمام المكان الذي نريده مباشرة حتى ولو أدّى ذلك إلى سد الطريق أو تضييقه. كيف نتعامل في البيع والشراء؟ فلا نُفاصِل في قروش ضئيلة رُبما لا تصنع فرقاً في حياتنا، لكنها تصنع فرقاً في حياة بائع الخُضَر البسيط. كيف ندفع «بقشيشاً» بسخاء وكيف نكون مستعدين أن ندفع لمن يقوم لنا بخدمة، أكثر مما هو مُتعارف عليه، أو حتى مما هو مُتَّفَق عليه[١٣] بدلاً من أن نُحاول أن «نغلبه» في السِعر.

كُل هذا يحتاج إلى أمر واحد، وهو *تجديد الذهن*. أي تغيير طريقة التفكير ومنظومة القِيَم. لقد رَبّانا العالم، ورُبما آباؤنا وأمَّهاتنا أيضاً على أننا عندما نتعامل

مع أي شخص أو شيء يجب أن تكون القيمة العُليا أن «نَكسَب»؛ أن نَحصل على أفضل شيء بأقل سِعر، ونحمي أنفسنا من الاستغلال، ونحصل على المكان الأول في الطابور. نمشي أقل مسافة للوصول إلى المكان الذي نُريد، ونُنهي مشاورينا ومصالحنا قبل الجميع لنوَّفر الوقت. وعندما نفعل ذلك نشعر بالسعادة والانتصار.

---

١٣ إنجيل متى ٢٠: ١- ١٦ (مثل الفعلة في الكَرم)

هذا وراءه مبدأ رُبما لم ننتبه إليه ولم نفحصه وهو أن «السعادة هي في الأخذ والحصول لا في التخلي والعطاء» و «الانتصار هو في التوفير لا في السخاء والكرم». رُبّما من وقت لآخر تتحرك مشاعرنا نحو محتاج أو مريض، أو بسبب إعلان تلفزيوني، فتحت تأثير هذا الموقف نقوم بعطاءٍ سخيّ، لكن هذا لا يُغيِّر طريقة التفكير الراسخة والمُتكررة في أغلب مواقف حياتنا اليومية.

> المحبة هي طريقة في التفكير تحسَبُ بنيانك الروحي واقترابك من طبيعة المسيح الذي يُتيح تواصلاً أعمق معه ومع الناس أهم من كسبك المال أو الوقت أو انتصاراً على الآخرين.

تجديد الذهن هنا هو تغيير هذه الطريقة للتفكير واستبدال طريقة أخرى بها. طريقة تحسب العطاء مكسباً والسخاء فُرصة لممارسة المحبة والتدريب عليها، وتحسب الحفاظ على سيولة المرور انتصاراً على الفوضى وأيضاً على الكَسل والأنانية فتمشي هذه الدقائق الخمسة من المكان البعيد الذي قمت «بركن» السيارة فيه سعيداً بالتمرين الرياضي والتدريب على المحبة. طريقة تَحسب الصبر وإعطاء دورك لآخر، مع استخدام الوقت في قراءة أو غير ذلك، استثماراً أفضل للوقت بدلاً من قضاء الدقائق الكثيرة في قراءة سخافات على مواقع التواصل الاجتماعي،والأسخف أن تقضى الوقت الذى تريد أن توفره، فى الشجار!! باختصار، هي طريقة في التفكير تحسَبُ بنيانك الروحي واقترابك من طبيعة المسيح مما يُتيح تواصُلاً أعمق معه ومع الناس، أهم من كسبك للمال أو الوقت أو انتصارك على الآخرين. عندئذ يُمكنك أن:

- تُعطي أكثر مما هو مُعتاد، ورُبما أكثر مما اتُّفق عليه، وتُضيف ابتسامة مع نظرة في العينين.

- عِندما تفقد شيئاً، لا تحزن كثيراً بل تتمنى أن يجدَّهُ شخصٌ آخر يحتاجه ويسعد به.

- عِندما يُخطئ أحدهم في حقك تَصبر وإذا عاتبت تُعاتب في محبة.

- تُبارِك من يتسبب في غضبك أثناء السير في الطريق، سواء في القيادة أو أي شيءٍ آخر.

- _____

_____

- _____

_____

- _____

_____

(اكتب ما تنوي أن تفعله أنت شخصياً)

- _____

_____

- _____

_____

أما الآن

فلتَثبُت هذه الأمور الثلاثة

الإيمان

والرجاء

والمحبة

لكن

أعظمها المحبة

صلاة ختامية

يارب اجعلنا أداةً لسلامك.

فحيثما الكراهية، اجعلنا نبذر بذور المحبة.

وحيثما الإيذاء اجعلنا نقدم العفو.

وحيثما الشقاق، اجعلنا ننشد الوحدة.

وحيثما الشك، اجعلنا نُقَوِّي الإيمان.

وحيثما اليأس، اجعلنا نوقد شموع الرجاء.

وحيثما الظلام،اجعلنا نوراً.

وحيثما الحزن، اجعلنا مصدراً للبهجة.

أجعلنا لا نَنْشُدَ كثيراً أن نَتَعَزَّى، بل أن نُعَزِّي.

ولا أن نطلب كثيراً الفَهم من الناس، بل أن نفهم نحن الناس.

ولا أن يُحبَنا الآخرون بقدر ما نَطلُب أن نُحِبَ نحن الآخرين.

لأنه في العطاء نأخذ، وفي الغفران يُغفَرلنا.

وفي الموت نولد للحياة الأبدية.

منسوبة للقديس

فرانسيس الآسيزي

من منشورات (الفيسبوك)

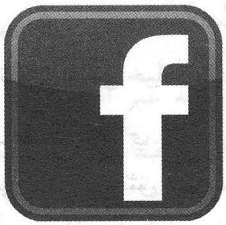

الأساسي لعدم النضوج النفسي) والاعتمادية تأتي أساساً من الجوع للمحبة غير المشروطة. وهذا الجوع هو السمة الأساسية للأسرة المضطربة والإنسانية المضطربة بشكل عام.

الاعتمادية ببساطة هي محاولة السيطرة على الناس وإرضاءهم علشان يحبوك. لأنك مش متوقع إن حد يحبك زي ما انت وهو حُر. ده بيخلي الاعتمادي بيحاول إنه يسيطر من خلال انه يرضي الجميع ومايزعلش حد. ولأن ده مستحيل، بيفشل دايماً ولما يفشل دايماً ممكن ييأس ويتحول إلى إعتمادي عكسي يعني يبقى شعاره: "ليذهب الجميع إلى الجحيم!" إللي هو الأناني والنرجسي والمتكبر.

الأصل هو الجوع للمحبة غير المشروطة (آجابي). وهذا الجوع هو الذي يجعلنا إعتماديين نحاول إرضاء الناس وعندما نفشل نكفر بالناس.

طيب ممكن تُقوللي: وإيه رأيك في اللي هو أناني من يومه. أقولك قصدك إيه بكلمة "من يومه"؟ هل تقصد إنه مولود كده. أنا ماظنش إنه مولود كده (مرض وراثي يعني) لكن هو بس كفر من الناس بدري قوي. يعني من الطفولة وده يقدر يعرفه لما يرجع لأسرته وتربيته وطفولته. .#المحبة غير المشروطة هي الحل.

واحد تاني (غير الأولاني أو ربما الأولاني) ممكن يدخل من البلكونة اللي واقف فيها بيدخن ويسألني يقوللي ياكابتن محمود بكر (دي برضه هزار): وليه الفقر في المحبة غير المشروطة؟ أقول له السبب الأساسي هو البعد عن الله. وأقصد "الله الحقيقي" وليس "إله الدين". إله الدين هو "وثن"

إحنا عملناه. أو بمعنى أصح اعتماديتنا عملته. إله نخاف منه ونغضب منه ونحاول نرضيه ونسترضيه ونتقي شره وكده. يعني صورة من "بابا" و"ماما" اللي كنا بنعمل معاهم الألعاب دي. أما الله الحقيقي هو إله المحبة الكاملة غير المشروطة اللي مش لازم نخاف منه لكن لازم نحترمه، ومش ممكن نرضيه، لكن نقبل رضاه ومش محتاجين نتقي شَرّه لأنه مش شرير أو نأمن مَكرُه لأنه مش مَكّار. هو بيحبنا زي ماحنا لكن في نفس الوقت مش عايزنا نفضل زي مااحنا.. عايزنا نكبر.

ممكن تقوللي كمان: ليه حصل البعُد ده؟ أقولك لأن الإنسان بيحاول يثبت نفسه، وده كويس. لكنه فاكر إن ربنا بيمنعه من ده أو مش عايز له ده (وده اللي بتعبر عنه رمزياً قصة شجرة معرفة الخير والشر) فبيبعد عن ربنا علشان "يحقق نفسه" بنفسه ولنفسه. الله عايز الإنسان يعرف الخير والشر لكن مش عايزه يتمرد ويستقلّ ويبعد، فيحرم نفسه من الحب غير المشروط اللي مصدره الأساسي هو الله لأن الله هو الوحيد اللي مش مشروط ومش محتاج حاجة. يعني وجوده وعطاءه مش مُشتَرَط بشيء. وزي ما شفنا، الحرمان من الحب بيبوظنا خالص.

عموما كل أب عنده ابن مراهق يعرف ده كويس. و يفضل "الأب" يحاول يُخطُب وِدّ ابنه المراهق ويحاول يفهمه: «يابني افهم، أنا ليك مش عليك».

فيه ناس بتفهم وتحيا وتنمو (هذه هي السماء) وناس بتفضل عايزة تعيش مُنحَصِرَة في نفسها (هذا هو الجحيم). والله أعلم!